ثنائية اللذة والألم في النص المسرحي العربي

أ.م.د.محمد فضيل شناوه

جامعة بابل –كلية الفنون الجميلة

الفصل الأول

الإطار المنهجي

مشكلة البحث:

مما لا ريب فيه من حمل النص المسرحي ومنذ بواكيره الأولى، جملة من المفاهيم والأفكار والروئ، والتي تكون مسايرة لفكر الكاتب ومرجعياته الثقافية والفلسفية، والتي لا تنفلت بشكل من الأشكال من الأجواء المحيطة والمجتمع الذي يعيش في كنفه. وتمتد هذه المفاهيم لتتجاوز تلك الأفكار والمضامين لتشمل بنية الشخصية المسرحية على الأصعدة كافة، لا سيما الاجتماعي والنفسي.

تعد الشخصية المسرحية احد الركائز الأساسية في بنية النص المسرحي، وهي وفق (أرسطو) تعد العنصر الثاني بعد الحبكة. لذا كان اهتمام كاتب النص بها اهتماماً مباشراً لكي يؤسس وينطلق لبناء النص المسرحي بشكل عام. فالشخصية المسرحية تحمل وجهين متداخلين هما الوجه الداخلي والوجه الخارجي، الذي يتأسس وفق ما يفرزه الوجه الأول من انفعالات و دوافع و بواعث ورغبات وميول وحاجات، هذا فضلا عن الجوانب الشعورية والوجدانية التي تحملها الشخصية وفق منظومتها الاجتماعية والنفسية والأخلاقية. وبذلك تعد الشخصية منظومة اجتماعية نفسية ذات بعد ديناميو و صيروري، تبعا لطبيعة الظرف الذي تمر به في لحظة ما وفي موقف معين وحسب احتياجاتها وميولها. والشخصية وفقاً لذلك حاملةً لأبعاد عدة، منها الجانب النفسي بكل تفرعاته وثنياته الذي يتأثر بكل ما هو محيط بالشخصية من مجتمع وجماعة وآخر، وعلى مستوى محيط الشخصية الذاتي الأنوي، فالشخصية تتأثر بهذه المفردات وفق ما تفرزه من مثيرات و بواعث، بوصفها منظومة اجتماعية نفسية تتأثر بكل ما هو آت إليها . تعد ثنائية اللذة والألم من المحطات النفسية التي تمر بها الشخصية، نتيجة ظروف اجتماعية أو نفسية، ولنتيجة مواقف معينة يكون تأثيرها واضحاً وجلياً في بنية الشخصية، ذلك حسب درجة حدة اللذة والألم، هذا فضلا إن هذه الثنائية لا يمكن أن تنفصل الواحدة عن الأخرى، إذ إن هناك جدلية قائمة بينهما، على الرغم من تضادهما من حيث المتعة والألم النفسي .ضمّن اغلب كتاب المسرح هذه الثنائية في متن نصوصهم المسرحية وضمن ثنيات منظومة الشخصية النفسية، لا سيما كتاب المسرح العرب، لظروف ألمت بشخصية الفرد العربي وما عاشه من مواقف حملت عديد من هذه الثنائية والتي صورت في متون هذه النصوص بشكلٍ أو بآخر .و بناءاً على ما تقدم يحدد الباحث مشكلة بحثه في الاستفهام الآتي:

ما جدلية ثنائية اللذة و الألم في النص المسرحي العربي؟ وما الأسباب و المناخات التي تحدث هذه الثنائية وأنواعها؟ وما التأثيرات والتداعيات الاجتماعية والنفسية على الشخصية جراء هذه الثنائية؟

أهمية البحث و الحاجة إليه :يسلط البحث الضوء على جدلية ظاهرة انفعالية نفسية واجتماعية ، هي ثنائية اللذة والألم وأهم أسباب حدوثها وأهم تأثيراتها وتداعياتها على الشخصية المسرحية، جراء ظروف اجتماعية نفسية تطال هذه الشخصية في ظرف ولحظة معينة وفي موقف معين. إذ يفيد البحث الدارسين والباحثين في مجال الفنون المسرحية وعلم النفس المسرحي والتربية المسرحية، من حيث تعريفهم وإطلاعهم جدلية ثنائية اللذة والألم في النص المسرحي العربي، من حيث الجدلية والماهية والأسباب والمناخات والأنواع والتداعيات.

أهداف البحث:- يهدف البحث الحالي إلى تعرف الآتي :

١- ماهية جدلية ثنائية اللذة والألم في النص المسرحي العربي.

٢- أسباب ثنائية اللذة والألم وأنواعها عند الشخصية في النص المسرحي العربي.

٣- تأثير وتداعيات ثنائية اللذة والألم عند الشخصية المسرحية وفق منظومتها الاجتماعية و النفسية.

حدود البحث:- يتحدد البحث الحالي بـ:-

الحد ألزماني: ١٩٦٣/ ١٩٦٦/ ١٩٩٨

الحد المكاني: ، سوريا، مصر، العراق

حد الموضوع: دراسة ثنائية اللذة والألم في النص المسرحي العربي، من حيث (الماهية، المناخات، الأسباب، الأنواع، التأثير والتداعيات)

تحديد المصطلحات: اللذة: لغوياً pleasure تعرف اللذة على إنها نقيض الألم، واحدة اللذات، لذه و لذ به يلذ لذاً و لذاذه و التذه و التذ به واستلذه: عده لذيذاً. و لِذت الشيء، بالكسر لذاذاً و لذاذة أي وجدته لذيذاً[١] .

[١]. أبن منظور، لسان العرب، مج١٣، ط١١، (بيروت: دار صادر، ٢٠١١)، ص.١٩٢

اللذة: اصطلاحاً

اللذة : إدراك الملائم من حيث انه ملائم، كطعم الحلو عند حاسة الذوق، والنور عند البصر، و حصول المرجو عند القوة الوهمية، والأمور الماضية عند القوة الحافظة تلتذ بتذكرها[١].

و اللذة مقابل الألم، وهما بديهيان أي من الكيفيات النفسانية الأولية. إذ يعرفها ابن سينا بأنها إدراك و نيل لأصول ما هو عند المدرك كمال وخير من حيث هو كذلك[٢].

التعريف الإجرائي: **اللذة (وظيفة عقلية وكيفية نفسية أولية ونزعة ثابتة للحصول عليها كمهرب أو متنفس عن الانفعالات والتوتر).**

الألم: لغوياً pain

الألم: الوجع، والجمع آلام، و قد ألِمَ الرجل يألم ألماً، فهو ألِم. ويجمع الألم آلاماً، وتألم وآلمته، والأليم: المؤلِم والموجِع، مثل السميع بمعنى المسمع ... والعذاب الأليم: الذي يبلغ إيجاعه غاية البلوغ، وإذا قلت عذاب أليم فهو بمعنى مؤلم ... وتألم فلان من فلان إذا تشكى وتوجع منه. والتألم: التوجع[٣].

الألم: اصطلاحاً

الألم: الشعور بما يضاد اللذة. سواء كان شعوراً نفسياً أم خلقياً[٤].

و الألم: مصدر ألم يألم، كعلم يعلم، وهو مقابل للذة. والألم واللذة هما من الأحوال النفسية الأولية، فلا يعرفان[٥].

التعرف الإجرائي: **الألم**

(حالة نفسية أولية وشعورية تقف على الضد من اللذة، سواء كان هذا الشعور نفسياً أم خلقياً).

الفصل الثاني

الإطار النظري

المبحث الأول: الشخصية في منظور علم النفس.

مفهوم الشخصية وسلوكها.

بات من العسير تحديد مفهوم شامل ومتكامل للشخصية وسلوكها، ذلك باختلاف وجهات نظر علماء النفس والاجتماع، وفقاً لتحليلاتهم المنطلقة من التخصص سواءً على مستوى التحليل النفسي أو السلوكي أو الاجتماعي.

تتطور تعريفات الشخصية وتتفرع وتختلف، باختلاف المفاهيم والمدركات والتعديلات المتوالدة في بنية الشخصية، نتيجة للفاعلية التي تحملها، بوصفها منظومة معقدة من الآليات النفسية والسلوكية والفسلجية والجسدية، وما يثيرها من دوافع ومثيرات وبواعث، والتي تتعالق وتتداخل لخلق الشخصية بسلوكياتها المختلفة والمتمايزة، فضلاً عن الأثر والتأثر بالمحيط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.يتطبع الإنسان بالصفات والخصائص والسمات التي تميزه عن غيره، وتكون سمة لشخصيته المتفردة على مستوى الذكاء والقدرة والإمكانات والثقافة والتفكير والعادة والرأي والمعتقد والمزاج والثبات الانفعالي والطموح، فضلاً عن الصفات الاجتماعية والأخلاقية والجسمانية بكل تمفصلاتها وحيثياتها. وفي الوقت نفسه قد لا تحيل كل هذه السمات والصفات المتمايزة والمتفردة، الإنسان فرداً متميزاً متفرداً بشخصيته ما لم يتصاهر مع الآخر والمجتمع مكوناً علاقات مظهراً شخصيته اجتماعياً. لذلك يعرفها (راجح) بأنها "مجموع صفات الشخص كما تبدو في علاقته مع الناس، أو إنها مركب من صفات مختلفة تميز الشخص عن غيره خاصة من ناحية التكيف للمواقف الاجتماعية"(٦). وهذا التعريف يأخذ إطاراً مظهرياً من خلال تأثير الشخصية اجتماعياً ودورها الفاعل والمؤثر في العلاقات الاجتماعية بوساطة أنشطتها الملحوظة فعلياً خارجياً والتي تشغل حيزاً زمنياً كافياً لقراءتها بشكل كامل.

الشخصية وليدة إنتاجيات العقل والجسم في منظومة ديناميكية تكاملية متوالدة سلوكياً بتوافقه اجتماعياً وتوازنه، وهي بذلك "الأسلوب العام لسلوك الفرد كما يظهر في عاداته التفكيرية وتعبيراته واتجاهاته وميوله وطريقة سلوكه وفلسفته الشخصية في الحياة"(٧). من خلال سلوكيات الاستجابة المتمثلة في أنماط استجابة قبلية منبهه لها بوساطة العلاقة الانعكاسية بين المثير والاستجابة، وتتمظهر نسبة ضئيلة في النمط السلوكي الإنساني ومن خلال سلوكياته الإجرائية المتحددة بفعل العوامل البيئية بتمفصلاتها الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية والدينية، مدخلاً تعديلاً عليها متجاوزاً الإشارة القبلية المثيرة، بل عن طريق مثيرات تمييزية. ويتمظهر بنسبة عالية في سلوك الإنسان، لأنه يتسبب في حدوثه وإتيانه، ليس افتراضياً عفوياً بل قصدياً، ومن ثم يتطبع الإنسان بوساطته بالدينامية والإرادة.

---

[٢]. أنيس، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، ج٢، (استانبول: دار الدعوة، ١٩٨٩)، ص.١٢٢

[٣]. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ج٢، ط١، (قم: ذوي القربى، ١٣٨٥ه)، ص٢٨٢.

[١]. أبن منظور، لسان العرب، مج١، مصدر سابق، ص.١٣٨

[٢]. أنيس، إبراهيم وآخرون، مصدر سابق، ص٢٥.

[٣]. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ج١، مصدر سابق، ص١٢٣.

[١]. راجح، أحمد عزت، أصول علم النفس، (بغداد: مطبعة اشبيلية، د.ت)، ص.٤٥٩

٢. السامرائي، هاشم جاسم، المدخل في علم النفس، (بغداد: مطبعة الخلود، ١٩٨٨)، ص١١٠.

وبذلك يكون السلوك الإجرائي حصيلة نتائجه في آثاره المترتبة على إتيانه لتقوية جوانب سلوكية معينة تتبعها نتائج إيجابية[1]. وبذلك يمكن تعريف السلوك الإنساني بأنه "أي نشاط يصدر عن الإنسان سواء كان أفعالا يمكن ملاحظتها وقياسها كالنشاطات الفسيولوجية والحركية، أو نشاطات تتم على نحو غير ملحوظ كالتفكير والتذكر والوساوس وغيرها"[2]. وقد يكون السلوك ايجابياً في نتائجه للفرد وللآخر، أو سلبياً والتي تنذر علاماته بحدوثه. وقد يكون السلوك أيضاً عفوياً لا إرادياً آلياً، وقد يكون قصدياً إرادياً واعياً صادراً عن رغبة واهتمام متعلماً ومتأثراً بالعوامل البيئية بكل تمفصلاتها والتي يعيش الفرد في محيطها. إذ يشير (روتر) إلى أن "السلوك لا يحدث من فراغ فالفرد يتفاعل باستمرار مع مظاهر بيئته الداخلية والخارجية، ويحدث هذا التفاعل لعديد من أنواع المثيرات الداخلية والخارجية بطريقة تتفق مع خبرته الفردية. والموقف النفسي هو تلك البيئة أو ذلك الموقف الداخلي أو الخارجي الذي يحفز الفرد أو يثيره لكي يتعلم كيف يمكن الوصول إلى أكثر اشباعات في ظروف معينة ويلعب الموقف النفسي دوراً حاسماً في تقدير السلوك"[3].

تتعدد تعريفات الشخصية وسلوكها وتتفرع وفقاً لمنظورها الخارجي والسلوكي والنفسي والاجتماعي، ووفقاً لماهيتها المتفردة وثوابتها وتأثيرات العوامل الخارجية والداخلية عليها وتأثيراتها الفاعلة في المجتمع. فالشخصية حصيلة ماهية كينونة الإنسان بوجوده الحضوري الفيزيقي الواقعي المعيش والمتعالقة ضمن آليات المجتمع وعصره والمرتبط بعاداته ونواميسه وثقافته وأفكاره وفلسفته، فضلاً عن إطاره الفردي الحامل لشخصيته المتفردة المتأتية بتوالدات فعاليات الأسرة والوارثة، بالإضافة إلى الاستعدادات الفطرية والغرائزية والمكتسبة والمحيط الفردي الضيق له، والتي بمجموعها تتولد الشخصية الإنسانية وتتخلق بصفاتها المتفردة والمتمايزة والمتباينة عن الآخر، بفعل تولد تمفصلات تربية الشخصية ونموها وعمليات التعلم الفطرية والمكتسبة، وما يفرزه المجتمع المحيط بها والأسرة التي تعيش في كنفها والاستعدادات الفردية وفروقها على الصعيد النفسي (الداخلي) والجسدي (الخارجي) وعلى المستوى الأخلاقي والسلوكي والفكري والعقلي، والتي تحيله كائناً اجتماعياً حياً سوياً متوافقاً مع نفسه ومتكيفاً مع الآخر والمجتمع. فالشخصية هي تلك المنظومة الديناميكية المتكاملة والمتفردة والدينامية التي تميز الفرد عن الآخر، والتي تعمل في تمفصلاتها آليات التفاعل الدينامي والتوالد بين المكونات النفسية وتنظيمها الحركي الداخلي بفعل عوامل نفسية وفسيولوجية، والمكونات العقلية والجسدية ومؤثرات البيئة الاجتماعية والثقافية والبيئية، لتوالد السلوكيات والانفعالات والمشاعر والعواطف التي تتطبع آثارها داخلياً وخارجياً بفعل الدوافع والمثيرات والبواعث، بغية الاستمرار في الحياة والتكيف مع الآخر والبيئة والتوافق معها. لتكون بذلك الإطار الذي يغلف الإنسان الذي تنتظم فيه طبائعه النفسية والجسدية والعقلية في منظومة متآلفة ومتفاعلة، لتبرمج خلاصة معارفه ومداركه وخبراته الفطرية والمكتسبة إزاء المثيرات والدوافع الأنوية والبيئية، لتوالد استجابات وسلوكيات ونشاطات عقلية وانعكاسية تكون في محمولاتها النهائية متوافقة مع الذات ومع الآخر ومع المجتمع.

أخذ مفهوم الشخصية في ضوء علم النفس أهمية بالغة ومكانة بارزة في التنظير، فضلاً عن وضع النظريات التحليلية والسلوكية ، ذلك بتطور مراحل التفكير الإنساني وتطور الحضارة الإنسانية، تلك النظريات التي لعبت دوراً مهماً في تحليل الشخصية ودراستها، لتبين طبيعتها ونموها وتكوينها وسلوكها وعاداتها، والتي انطلقت من وصف الشخصية علماً لدراسة الأفراد ونتاج تفاعلهم مع الذات ومع الآخرين ومع المجتمع والبيئة. لذا جاءت النظريات التحليلية النفسية لعلماء النفس لتوضح طبيعة الشخصية وسلوكياتها، كنظرية (فرويد) في التحليل النفسي، ونظرية (يونغ) واللاشعور الجمعي والأحلام والرموز، ونظرية (إدلر) التي أكدت الفردية بوصف الفرد كائناً اجتماعيا يرتبط بالآخر والمجتمع والبيئة من خلال سلوكه الفردي، والذي لا يمكن الانفصال عن الآخر، ساعياً إلى الانتماء والمساهمة في الصالح الإنساني، لذا يؤكد (إدلر) على التنشئة الاجتماعية، بوصفها عاملاً مهماً وركناً أساسياً ورئيساً في صياغة وتكوين الأبعاد النفسية للشخصية. ويؤكد (سكنر) على أهمية البيئة الاجتماعية في بناء الشخصية الإنسانية، من خلال الأثر والتأثر والتفاعل الايجابي والعلاقة المتبادلة، هذا فضلاً عن عديد من النظريات التي اهتمت بدراسة الشخصية، كنظريات السمات والدوافع والتحليل النفسي والنمو والبيولوجية والإنسانية والاجتماعية والثقافية والحاجات والغرائز، بغية الوصول إلى مفهوم (الشخصية المتكاملة)، هذه النظريات جاءت نتيجة وصف الشخصية بذلك " النظام المعقد التركيب الذي يمكن الفرد من التواصل الذهني والفكري والاجتماعي بغية التعايش الطبيعي"[4].

المبحث الثاني: اللذة والألم من المنظور الفلسفي والنفسي.

تعد ثنائية اللذة والألم من الحالات النفسية الأولية، بوصفها ظواهر نفسية بسيطة خالية من التعقيد، لرجوعها إلى جنس وفصل واحد. فـ "للذة مقابلة للألم، وهما بديهيان، ومن الكيفيات النفسانية فلا يعرفان، بل إنما ينعكس خواصهما دفعاً للالتباس اللفظي، قيل: اللذة إدراك ونيل لما هو عند المدرك كمال وخير، من حيث هو كذلك. والألم إدراك ونيل لما هو عند المدرك آفة وشر من حيث هو كذلك"[5]. والمقصود بالإدراك هو العلم. واللذة بحسب (ابن سينا) إدراك الملائم، ولذة كل قوة حصول كمالها. وبحسب (الغزالي) إدراك كل قوة لما هو مقتضى طبعها. وبحسب (ابن خلدون) إدراك الملائم. وبحسب (الرازي) إعادة ما أخرجه المؤذى عن حالته تلك التي كان عليها[6]. وتتواجد اللذة والألم في حياة الإنسان انطلاقاً من كونه منظومة نفسية، وهذه الثنائية هي في أغلب حالاتها مواقف انفعالية عامة، وان جل الظواهر النفسية إما أن تكون منافية أو ملائمة، نافيةً تلك الأحوال الحيادية الوسطى، والذي يتبع حتماً اشتراطات الحياة العامة وما يحيط الإنسان من مثيرات ودوافع وميول وحاجات. وبحكم وصف هذه الثنائية تمثل قطبي الحياة الإنسانية على الصعيد الشعوري والوجداني، كان لا بد من تواجد تلك الأحوال الحيادية الوسطى ما بين اللذة والألم، بغية التكيف وحسن التوافق مع مفاصل الحياة كافة، ففي عام

---

٣. العزة، سعيد حسني وجودت عزت عبد الهادي، تعديل السلوك الإنساني، ط١، (عمان: الدار العلمية الدولية ودار الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠٠١)، ص١١، ص١٣.

٤. المصدر نفسه، ص١١.

١. موسى، رشاد علي عبد العزيز وآخرون، علم النفس الديني، (القاهرة: مؤسسة مختار لنشر وتوزيع الكتاب، ١٩٩٦)، ص١١٧.

[1]. عبد السلام، مصطفى، عالم الشخصية، (بغداد: مطبعة منير، بلا)، ص١١.

[2]. الحنفي، محمد علي بن علي بن محمد التهانوي، كشاف اصطلاح الفنون، مج٤، ط٢، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦)، ص٧٣.

[3]. الحفني، عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط٣، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠)، ص٧٠٦.

١٩١١ وضع (فرويد) مبدأ اللذة الذي يعد "أحد قواعد الوظائف العقلية -(مع مبدأ أنا الواقع)- ويعني أن الكائن دائماً لديه نزوع ثابت إلى الحصول على اللذة وتجنب الألم من خلال التنفيس عن التوتر، ويفسر بعض السلوكيات الإنسانية"[١]. ومبدأ اللذة أحد المبدأين اللذين يحكمان النشاط العقلي، وان هدف مجمل النشاط النفسي هو الحصول على اللذة وتجنب الانزعاج قدر الإمكان لتخفيف حدة الإثارة، وبذلك أضحت اللذة مبدأً اقتصادياً. لقد طرح (فخنر) مبدأ اللذة الخاص بالفعل، متجاوزاً عد غائية الفعل الإنساني ونشاطه يكمن هدفه وتوقفه في حدود اللذة، بل الفعل يتحدد باللذة أو الانزعاج الآني الذي يؤمنهما تصور الفعل الذي يتعين تحقيقه أو تصور نتائجه. ولقد جوبهت اللذة والألم بأطروحات وصعوبات ومشكلات حول تحديد تعريف ناجز لهما ولإفرازاتهما، من حيث إيجاد معادلات كيفية وكمية التي تتكون من اللذة والألم والانزعاج[٢]. أما الألم فهو حالة " شعورية تكشف لنا عن النزاع القائم بين الجسد والقوى الخارجية، وتدل على عدم التكيف، وعلى ما ينشأ عن ذلك من إتلاف للطاقة. واللذة حالة شعورية تدل على اتصال أفعال الجسد بالقوى الخارجية ومؤالفته إياها، وعلى ما ينشأ عن ذلك من زيادة في الطاقة ونمو في الفاعلية"[٣]. في حين يسلّم (فرويد) بأن " مبدأ اللذة يتضمن الاحتفاظ بمستوى ثابت للطاقة، أو اختزال جذري للتوترات إلى أدنى مستوى... ويميل إلى وجود تعارض بين مبدأ اللذة والاحتفاظ بمستوى ثابت للطاقة، بل أنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك"[٤]. كما يسلّم (فرويد) بذلك التعارض بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع، المرتبط " بالتعارض القائم بين أنا- اللذة، وأنا الواقع، فالدفعات الغريزية تخضع في البدايات لمبدأ اللذة، ومن خلال مبدأ ثالث (هو اختبار الواقع) تخضع تدريجياً لمبدأ الواقع، فلا يعود التصور ما هو لاذ بل ما هو واقعي، وان كان مؤلماً"[٥]. يستعمل (فرويد) مبدأ (أنا لذة - أنا واقع) بغية الرجوع إلى آلية تكوين علائقية الفرد مع العالم الخارجي والعبور إلى الواقع. وطرح (فرويد) مبدأ التعارض بين المبدأين بدلالات مختلفة، التعارض ما بين المبدأين واقع في صياغات حول مبدأي النشاط الوظيفي والنفسي، بالتعارض الموجود بين المبدأين، واستعمال هذين المبدأين دلالة على تطور نزوات الأنا. والدلالة الأخرى في تكوين تعارض الفاعل (أنا) والموضوع (العالم الخارجي)، بوصفه متلازم مع التعارض ما بين اللذة والانزعاج. ولم يحدث أن قام (فرويد) بفك هذا التعارض وإدماجه في مجمل أطروحاته ما وراء النفسية[٦]. لذا يشتمل منطق (فرويد) على فهم مفاده " أن اللذة التي -هي هدف الرغبة- لها منطلقات ذاتية، لكنها تنزع إلى الإشباع بالعلاقة مع الموضوعات الأخرى (حيث الأم هي الموضوع العاطفي الأول). وهذا ما يضعنا في إطار المجتمع الذي يحول اللذة ويتحكم بها، فيطلقها أو يقمعها"[٧]. فالإنسان بفطرته بفطرته يحابي اللذة وينشدها لاسيما المباشرة منها والتصريف الصحيح لرغباته، مع اصطدامه بالواقع والمحيط والبيئة الاجتماعية وحقائق الطبيعة الخارجية التي تصد رغباته وتعترضها، فيحاول جاهداً تجنب تلك اللذات التي تتولد عن الآم أكثر، مع تأجيل تصريف الرغبات لحين توافر المناخ الذاتي والبيئي المناسب[٨].لا يقتصر النزاع والاتصال القائم بين هذه الثائية بين الجسد والقوى الخارجية، بل يتعدى ذلك إلى المنظومة النفسية الداخلية والشعورية والوجدانية، فاللذة " ليست بيولوجية آلية صرف وإنما هي هوامية نفسانية، ذلك أن المركز الجسدي للذة يعتبر قاعدة مباشرة لهوامات مكثفة ومتحركة ورمزية تختلس اللذة من مكان الجسد المركز إلى ضباب الهوامات السرابية"[٩]. فضلاً عن الحاجات والميول والرغبات والمصدات وسوء التكيف، وحدود الإمكانات والقابليات في تحقيق الأهداف من عدمها. وفي كلا الحالين – اللذة والألم – تحصل الزيادة في الطاقة والنمو في الفاعلية، بوصف الإنسان منظومة نفسية وطاقة وبعد دينامي صيروري، يتأثر ويؤثر في المجتمع والمحيط. والحالة الحيادية الوسطى(الخلو من اللذة والألم) ما هي إلا حالة كمون وتوافق وتكيف قوى الإنسان الخارجية (الجسد) والداخلية (النفس) والقوى الخارجية المحيطة به، مع انعدام الزيادة في الطاقة والنمو في الفاعلية ونقصانها. والحقيقة كل الحقيقة إن الإنسان ينتقل فجأةً ودون سابق إنذار ودفعة واحدة من اللذة إلى الألم وبالعكس، بسبب حال الإنسان هكذا، فضلاً حالات الأثر والتأثر والمزاج وإفرازات الحياة وما يمكن أن تفرزه من مثيرات ودوافع تكون قابلة لاستنطاق الإنسان ودفعه لاتخاذ موقف أو تضعه في حالة لذة أم ألم. وفي كل الأحوال لا يمكن إهمال أو عزل الأحوال الحيادية الوسطى التي تكون حاضرة في حياة الإنسان في لحظة من لحظات حياته المتمرحلة والمتقلبة. ففي كثير من الحالات الحياتية تتمظهر هذه الأحوال الحيادية لدى الإنسان، عندما لا تولد أو تثير أي لذة أو ألم، إلا بمقدار بسيط جداً يكون متأملاً، وتتمظهر في حالات النشوة والوجد أو الحيرة والتعجب، وبوصفها حالات حيادية إلا إنها تحمل نوعاً من اللذة والألم، ولكن بدرجة قليلة نسبياً لا تؤثر في الحالة الجسدية والنفسية للمتأثر بها. فهناك علائقية واشتباك في عديد من أحوال النفس والجسد، بحيث كان من الصعوبة الفصل بين العناصر الذهنية عن الانفعالية إلا بشكل مجرد.ومن هنا كان اتحاد اللذة والألم في حياة الإنسان، وهو في كل أحواله لا يخلو من هذه الثنائية، سواء كانت جسدية أم نفسية، فدائماً هناك انقلاب من وإلى اللذة والألم، بوصفها نتيجة طبيعية لتلك الإحساسات وفي الأحوال النفسية المركبة واشتباكها. وقد أشار (أفلاطون) إلى ذلك الاتحاد والتواجد في آن واحد في كتابه (الفدون) في قوله: " يا أصدقائي ما أعجب الشيء الذي يسميه الناس لذة، وما أغرب اتحاده بالألم. لعل اللذة الإنسانية لا تريد في الأصل أن توجد مع الألم في وقت واحد؟ إلا أنك لا ترغب في أحد الطرفين، ولا تحصل عليه إلا لتقبض بالضرورة على الآخر. فكأن هذين الضدين مرتبطان بقمة واحدة (أي بمبدأ واحد)"[١٠]. فاللذة والألم متواجدان في آن واحد وممتزجان ولا يمكن الفصل بينهما. إذ ليس هناك لذة تامة لا تحمل معها ألم، إلا باتساق وظائف الحياة اتساقاً مطابقاً ومطلقاً، وهذا لا يمكن أن يتحقق. إذ ليس هناك ألم دون لذة، إلا باقتضاء الخروج المطلق عن الاعتدال الطبيعي والمنطقي للكائن الإنساني الحي، أو بفساده وانحلال تركيبة الجسد. والأمثلة الحياتية والمسرحية تزخر بذلك التعاقب والامتزاج والاتحاد بين هذه الثنائية، سواء بين اللذة النفسية والألم الجسدي وبالعكس، أو بين اللذة النفسية والألم النفسي وبالعكس، أو بين اللذة الجسدية والألم الجسدي وبالعكس. فـ(أجاممنون) يقدم ابنته (إيفيجينيا) قرباناً للآلهة

---

[١]. الشربيني، لطفي، موسوعة شرح المصطلحات النفسية، ط١، (بيروت: دار النهضة للطباعة والنشر، ٢٠٠١)، ص٢٧٨.
[٢]. لابلانش، جان و ج. ب. بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ط٢، تر: مصطفى حجازي، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٧)، ص٤٥٢- ص.٤٥٤
[٣]. صليبا، جميل، علم النفس، ط٣، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٤)، ص١٩٩.
[٤]. طه، فرج عبد القادر وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، ط١، (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت)، ص٣٩١.
[١]. المصدر نفسه، ص.٣٩٢
[٢]. لابلانش، جان و ج. ب. بونتاليس، مصدر سابق، ص١١٤- ص١١٦.
[٣]. عباس، فيصل، الإنسان المعاصر في التحليل النفسي الفرويدي، ط١، (بيروت: دار المنهل للطباعة والنشر، ٢٠٠٤)، ص.٢٩١
[٤]. عباس، فيصل ومالك العنبكي، مدخل إلى علم النفس، ط١، (بيروت: دار المنهل للطباعة والنشر، ٢٠٠١)، ص٦٨.
[٥]. عباس، فيصل، الإنسان المعاصر في التحليل النفسي الفرويدي، مصدر سابق، ص٢٩١.
[١]. أفلاطون، كتاب الفدون أو خلود النفس، تر: مونيه، ص٤٢. نقلاً عن صليبا، جميل، علم النفس، مصدر سابق، ص٢٠٠.

لكي تسير السفن إلى طروادة. وتحدي (أنتجونا) لـ(أجاممنون) ودفنها أخيها (بولونيس). وقتل(ميديا) أولادها انتقاماً وتشفياً من زوجها (جيسون) لزواجه من غيرها. وتحريض(الليدي مكبث) ودفعها لزوجها لقتل الملك (دنكن) طمعاً ولذةً بالسلطة والآمها وجنونها وموتها في نهاية الأمر، و(مكبث) وهوامه النفسي بالسلطة والعرش. والجنون والتظاهر بالجنون لدى (هملت) ولذته وألمه في تعامله مع أمه وحبيبته (أوفيليا). و(نورا) ولذتها بنيل حريتها بصفق باب البيت وخروجها على مفردات مصداتها وقهرها ألبيتي والاجتماعي، بعد نيلها جملة من الآلام النفسية والجسدية. وللذة والألم أنواع ثلاثة، جسدية– الأكل، الشراب، الجماع...، وهي مشتركة بين الإنسان والحيوان، وهي ليست كمالاً للإنسان. وخيالية وهمية- لذة الرئاسة والسلطة والعظمة على الآخر، وتكون مفاسدها ومضارها أعظم من تلذذ النفس بها. وعقلية وروحية- لذة العلم والمعرفة والاتصاف بالصفات النبيلة والأخلاق[1]. فهما أما حسيان أو عقليان. فالحسي المدِرك والمدَرك فيه فيه من الحواس وبالحواس. والعقلي المدِرك والمدَرك فيه من العقل وبالعقليات. فلا ألم للجماد، وتكيف الشيء لا يلزم الألم من غير إدراك، وإدراكه دون نيله لا يؤلم، واللذة زائلة من خلال إشباعها، والألم بزوال مسبباته[2].تختلف اللذة عن الألم على الرغم من اتحادهما وتواجدهما في آن واحد، من حيث الكيفية، على الصعيد النفسي والأخلاقي، فهي أما جسدي أو نفسي. ومنها أما شريف ونبيل أو دنيء و رذيل. وتختلف أيضاً من حيث الشدة والدرجة، فاللذة أما خفيفة أو قوية أو معتدلة، والألم أما ضعيف أو شديد. والاختلاف هنا ناتج باختلاف الإنسان وتباينه في الاستعداد وسنه ومركزه الاجتماعي، فضلاً عن طموحاته وأهدافه وحجم إمكاناته، بالإضافة إلى توافقه أو عدم توافقه مع الآخر والمجتمع والمحيط، والى الفروقات الفردية والوراثة. وتختلف أيضاً في المدة من حيث القصر أو الطول، فإطالة مدة اللذة قد تنقلب ألم، وقد تنقلب الآلام إلى لذات سواء كانت جسدية أم نفسية. فالتكرار في إتيان فعل اللذة قد يقوي أو يضعف الإحساس بها، من منافي إلى ملائم وبالعكس، وتسمى اللذات المتولدة من تكرار الفعل باللذات المكتسبة. وأحيانا التكرار وجري العادة تخفف وتطفئ من شدة اللذة والألم، لأنها تضعف الحساسية وتقلل القبول وتزيد من الفاعلية. فاللذة الناتجة من رؤية منظر طبيعي جميل، قد يضعف وينطفئ في حال رؤيته مراراً وتكراراً، ويكون الشوق والحنين واللذة إلى مشاهدة منظر أقل جمال طبيعي بعد جفاء وقطيعة من الزمن، إذ لا يبرز الشعور بقبح المنظر لمنافاته لطبيعة الجمال التي يتم ألتوق إليها. واللذة والألم هي نسبية تظهر وبشكل جلي ووضوح في حالة التضاد وتقوى أثراً في التباين، فاللذة القوية يتلوها ألم قوي والعكس صحيح، فلا لذة بالدفء ما لم يكون هناك برد شديد، ولا ألم من حياة الراكدة الجامدة المملة إلا في الحياة النشطة وألفتها، ولا لذة في الأكل إلا بعد الجوع الشديد، لذا فاللذة والألم يخضعان لقانون النسبية.[3] هناك رأيين متناقضين حول أولية كل من اللذة والألم، وأيهما خروج من الآخر؟ وأيهما سلبي وأيهما ايجابي؟ الرأي الأول خاص خاص بالمتشائمين والذين يرون بأن الألم أساس الحياة الدنيا، ولا توجد بدونه، لأنها شقية فاسدة، مليئة بالعناء ونهايتها فناء، والإنسان فيها مليء بالآم الجسدية والنفسية، لا لذة فيها إلا بالتخلي والابتعاد بأحلامه عن الواقع، فطبيعة اللذة من وجهة نظرهم سلبية، لأنها لا تكون وتحصل للنفس إلا عند خروجها من الألم، لذا فالألم لديهم أولي تخرج منه اللذة. ويستند المتشائمين إلى أدلة أخلاقية ونفسية منها[4]:-

١- يقول (ابيقوروس): الحياة رغبة وشهوة، والرغبة تتولد من ألم الحرمان والعدم، فالحكمة كل الحكمة إذن في إماتة الرغائب والشهوات، والسعادة كل السعادة في الجمود، والسكينة، وفقدان الشهوات، وبطلان الألم.

٢- ويقول(كانت): الحياة جد وجهاد، والجهاد يولد الألم.

٣- ويقول(شوبنهاور) و(لئوباردي): الحياة كلها قلق واضطراب، لأنها أسف على الماضي، وسخط على الحاضر، ونزوع بالآمال إلى المستقبل. إذا تحقق الأمل صار المستقبل حاضراً، وإذا صار حاضراً لم يرض الإنسان به.. فلا وجود إذن للذة المحضة التي لا يشوبها ألم ولا حاجة.

ينطلق أصحاب هذا الرأي من فلسفتهم المتشائمة وإلى نوع الإرادة الدينامية الصيرورية التي لا إشباع لها، فضلاً عن نوع حياتهم القلقة واغترابهم الفكري ونوع الفلسفة السائدة وطبيعة العصر ومشكلاته، بالإضافة إلى البنية السياسية والاقتصادية المضطربة، واهتمام فلسفتهم بالإنسان (الفرد) وحاجاته وميوله وأهدافه. والرأي الثاني هو رأي المتفائلين الذي يقف على الضد من الرأي الأول، والذين يرون بأن اللذة ايجابية، وهي شيء أولي، يتولد منها الألم. ويستند أصحاب هذا الرأي إلى أدلة منها[5]:

١- لا يوجد ألم في الرغائب التي لم تتحقق، والشهوات التي لم تدرك، فالجوع في أوله شهوة لذيذة، وحركة ملائمة، تنتهي بلذة في الأكل، وراحة الشبع.

٢- ليس كل جد مؤلماً ولا كل جهاد مضنياً. بل الجهاد المعتدل ملائم للنفس، وموافق لنشاطها، لا يصبح أليماً إذا كان مخالفاً للطبيعة، وخارجاً عن الاعتدال.

٣- القلق مرض، ولا وجود للاضطراب في حالة الصحة، والحياة الممتلئة تمنعنا من الأسف الدائم على الماضي. أضف إلى ذلك إن بعض اللذات خال من الألم، كلذة التمتع بالطيب والمنظر الجميل برهة قصيرة من الزمن. إن هذه اللذات تنسينا متاعب الحياة وتحبب إلينا الفعل.

---

[1]. عفيفي، محمد الهادي، موسوعة الحب والجنس عبر كل الأديان، ط١، (الجيزة: هلا للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨)، ص١٢٩.
[2]. الحفني، عبد المنعم، مصدر سابق، ص٩٥.
[1]. صليبا، جميل، علم النفس، مصدر سابق، ص٢٠١، ٢٠٢.
[2]. المصدر نفسه، ص٢٠٢، ٢٠٣
[1]. المصدر نفسه، ص٢٠٣.

الحقيقة إن ما جاء في هذين الرأيين لا يمكن أن يكون صائباً في كل الأحوال، إذ ليس الألم هو ماهية اللذة، وليس اللذة هي أساس الألم، فاللذة والألم هما أوليان وطبيعتهما ايجابية، فتمظهر أحدهما لا يعني بالضرورة توالد الآخر،، ولا انقطاع أحد يولد الآخر، وهذه دلالة على استقلالية كل واحد عن الآخر بشروطه الخاصة التي يتمتع بها، فليس الألم فقدان اللذة والعكس صحيح أيضاً.

اشتراطات اللذة والألم: تحمل اللذة والألم اشتراطات على الرغم من الافتراق والاقتراب في اللذات والآلام الجسدية والنفسية، فهل من الممكن اقتراب لذة الأكل من طبيعة لذة الثواب وراحة الضمير؟. هناك لفيف من العلماء لا يضع فوارق بين اللذات والآلام الجسدية والنفسية، باستثناء الاشتراطات الخاصة بقسم منها، فلا اختلاف شرطية لذة الثواب عن شرطية لذة الأكل، إلا من حيث الاشتباك والتركيب، هذا الاقتراب يرجع لأحادية الطبيعة الأساسية لها، على الرغم حمل كل من اللذات والآلام الجسدية والنفسية اشتراطات عامة وخاصة تفرق بينهما وتضع حداً فاصلاً، بحكم اقتصار اللذات والآلام الجسدية تابعة حصراً لأفعال الجسد ووظائفه الآلية، ونشوء اللذات والآلام النفسية عن فعل النزعات النفسية، وعند المقارنة بينهما، يكون الانتباه والتركيز للاشتراطات الخاصة حاضراً أكثر، مع إهمال الاشتراطات العامة، التي بها يكون إذابة الفوارق بينهما، ولا بالقياس إلى قوانين الحياة الانفعالية، فالملائم للجسد يختلف بالتأكيد عن الملائم للنفس، من حيث النوع الانفعالي لا من حيث الطبيعة، ولا من حيث الماهية، إذ لا فرق بين ألم اليأس وانقطاع الأمل وبين ألم البثور، وعلى حد قول (ريبو)، لعدم افتراق طبيعة كل منهما، وان طبيعة الجسد من اللذات والآلام هي ذاتها لا تختلف عن طبيعة النفس ولذاتها وآلامها، إلا من حيث اللون الانفعالي والصفات الخاصة[1]. ومن اشتراطات اللذة والألم ما هو فسلجي وما هو نفسي. فالأول مهيمن لأنه خارجي ومحسوس وقريب من البحث العلمي من الشرط الثاني (النفسي)، لأنه داخلي وغير محسوس، فالألم هو " إحساس محدد وعضوي، بحيث يمكن العثور على الحس به في كافة أنحاء الجسم وتؤلف أطراف الأعصاب المنتشرة ما يفترض أنه أعصاب الاستقبال"[2]. ومن اشتراطات اللذة والألم:-

أولاً:- الاشتراطات الفسيولوجية[3]:-

١- ما يقارن اللذات والآلام من التبديلات العامة التي تحدث في المجمع العصبي. وهي لا تزال غامضة حتى اليوم، لأن العلماء لا يزالون مختلفين في أمرها. فمنهم من يقرر وجود حس خاص يسميه بحس الألم. ومنهم من ينكر ذلك فيعزو حدوث الألم إلى شدة تأثر الأعصاب الحسية بالجملة. أي خروج تأثر الأعصاب عن حد الاعتدال... ومنهم من يقرر أن اللذات والآلام تنشأ عن تأثير النخاع ألشوكي.

٢- ومن الشروط العامة اختلاف القوة والطاقة باختلاف اللذة والألم. فالحالة الملائمة تولد القوة وتزيد الفاعلية الجسدية والذهنية. والحالة المنافية تنقص قوى الحياة وتبعث على انحطاطها.

٣- لقد دلت التجارب على إن الحالات الملائمة مقرونة بازدياد المبادلات العضوية. فاللذة تقوي الدورة الدموية في الجسم عامة، وفي الرأس خاصة... أما الألم فيؤخر الدورة الدموية، وينقص ضربات القلب... اللذة تقوي التنفس، وترفع حرارة الجسد، والألم ينقصهما... اللذة تزيد قوة الهضم... وعلى عكس ذلك الألم، فهو يضعف شهوة الأكل... .

٤- اللذات والآلام مصحوبة بتبدل في الحركات، فاللذة تزيد الحركة والألم ينقصها... .

ثانياً:- الاشتراطات النفسية: لا تكون الحالة النفسية هي مجرد انفعال، لاسيما في اللذة والألم، إذ لا بد من توافر حالات فكرية تكون مقارنة للذة والألم، وهذا ما أكده عديد من علماء النفس، وان التحليل النفسي كشف عن حزمة من الأفكار والاعتقادات والذكريات والتصورات المقارنة لذلك الانفعال، وان كان انفعالاً محضاً، وبذلك تكون كل حالة نفسية هي نتيجة لعوامل عديدة خاصة بالمنفعل على الصعيد الداخلي والخارجي، على الرغم من تواجد حالات نفسية تكون انفعالية محضة، والتي تكون مقرونة بالنفوس غير السوية... لذا فكل حالة انفعالية تكون مصحوبة بحالة عقلية، وكلما زاد الانفعال ضعف العامل العقلي، والعكس صحيح، فالفرح والسرور والحزن تمنع حاملهما من التأمل، والتفكير العميق يقلل من الانفعال. وبذلك أضحت كل حالة نفسية معرفة وانفعال معاً[4].

طبيعة اللذة والألم

تجترح طبيعة اللذة والألم آراء عدة، نتيجة الالتباس الناتج من تعريفهما وتداخل والتصاق واعتمال وتجاور مفردات ومصطلحات معهما، واختلاف ميادين اشتغالاتها، فضلاً عن نظرة الفلاسفة وعلماء النفس المختلفة والمتداخلة إزاءها، وصعوبة إمكانية تحديدهما. فاللذة نموذج أساسي للعاطفة، كان من الخطأ خلطها مع الفرح أو السعادة. ولا الألم يمكن خلطه مع الحزن أو الكآبة. والالتباس الحاصل في قضية أخلاقية اللذة والمغالطة في صعوبة تحديد معنى اللذة والخلط بين الإشباع الموضوعي للميل والهوى وبين فكرة وتوقع الحالة العاطفية التي تنجم عن الإشباع، فضلاً عن مفردة الإشباع، بالإضافة إلى لبس خلط اللذة الحسية وغير الحسية الناجمة عن النزعة الطبيعية والعفوية، في حين يرى (هاملان) بقابلية تحديد مفهوم اللذة وتعريفها بنحو آخر غير التعريف ألسببي، بوصفه تقويم من قبل الفاعل ذاته، ومن زاوية الحالة التي أوصله إليها إشباع ميل ما. في حين يخطّئ (م. مارسال) (هاملان) بتوقف هذا التعريف ألسببي

---

[1]. المصدر نفسه، ص٢٠٤، ص٢٠٥.

[2]. رزوق، أسعد، موسوعة علم النفس، ط١، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مطابع الشروق، ١٩٧٧)، ص٤٦.

[3]. صليبا، جميل، علم النفس، مصدر سابق، ص٢٠٥ – ص٢٠٧. للمزيد ينظر: سيلامي، نوربير، المعجم الموسوعي في علم النفس، ج١، تر: وجيه أسعد، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، مكتبة الأسد، ٢٠٠١)، ص٢٩٠- ص٢٩٤. وج٥، ص٢١٩٦، ص ٢١٩٧.

[1]. صليبا، جميل، علم النفس، مصدر سابق، ص٢٠٨ - ص٢١٠.

وفق ما تحمله مفردة الميل والإشباع من مقاصد وأولية اللذة أم الميل، ويخلص (مارسال) بأن اللذة غير قابلة للتعريف وفق سياق المعرفة وفي علم النفس، والحال ذاته في موضوع الألم واختلاف ميادينه، أخلاقياً، معنوياً، وأحوال الانزعاج، الاستياء، الكآبة، الحزن، القسوة[1]. تلحق النفس الإنسانية لذات وآلام في اعتقاداتها ومعارفها وتصوراتها، تجد النفس اللذة في حال كون الفعل مطابق للرأي، والألم إذا كان مخالفاً. وان اللذة والألم لا يخلو من عناصر فاعلة وعناصر ذهنية وفكرية. فتنحل طبيعة اللذة والألم تارة إلى المذهب الذهني الذي يعلل الحالة الانفعالية بالحالة الفكرية، لذا يقول أصحاب هذا المبدأ بأن " اللذات والآلام ناشئة عن الاعتقادات، وان العواطف مبنية على الأفكار والتصورات. فاللذة هي الشعور بالكمال، والألم هو الشعور بالنقص... فاللذات والآلام تابعة للآراء والأحكام. والأحكام الانفعالية هي أحكام قيم مبهمة"[2]. وأساس هذه النظرية في العصر الحديث يرجع إلى (ديكارت) في مقولته" أساس رضانا شهادة الشعور الداخلي بحصولنا على شيء من الكمال" و" السرور انفعال ملائم للنفس يبعثها على التلذذ بالخير الذي تمثله لها تأثيرات الدماغ. والحزن ضنى مناف للنفس يبعثها على الشعور بمضض الشر والنقصان الذي ينقله إليها تأثير الدماغ"[3]. وقد وافق (ليبنيز) (ديكارت) وحذا حذوه بقوله: " أظن أن اللذة هي الشعور بالكمال، والألم هو الشعور بالنقص"[4]. من هنا فالمذهب الذهني يبين أثر الفكر والرأي في إحداث اللذة والألم، وهو مطابق لما يعتقد الناس، فالفرح والسرور والشقاء والتعاسة تنشئ جراء الإرادة. وان حالة الانفعال تنشئ عن الرأي والفكر والاعتقاد والتصور، وان التعليل الفكري يصلح للذات النفسية ويجافي اللذات الجسدية. وتارة تنحل طبيعة اللذة والألم إلى نظريات الفاعلية، والتي تنحصر آراء فلاسفتها في فريقين، الأول: ينحى إلى كون (الفاعلية ينبوعاً للألم)، ومنهم (ابيقوروس) الذي عد الفاعلية علة الانفعال، والإنسان بطبيعته جُبِل على حب اللذة، لأن فيها سروره وسعادته وتوافقه، واللذة عنده هي انقطاع الألم، وهي أما جسدية أو نفسية، وهي لا تحمل قيمة إلا بانتسابها إلى الألم، فطبيعتها سلبية، لأنها لا تتمظهر وتتولد إلا من انقطاع الألم. ويقترب (كانت) من هذا الرأي بوصفه الحياة نضال وجهاد، وكل جهاد هو متعب، وترك الواقع والابتعاد عن الحاضر، لأنها بؤس وشقاء، والحياة مثل هذه تسحب معها الفعل وتقتضيه، وهكذا فعل يولّد الألم، واللذة عنده هي انقطاع الألم، فضلاً إن اللذة لديه لا تعقب اللذة، ولا يمكن أن تُدرك إلا بعد إدراك الألم الذي هو أساس اللذة، وهو أحد اشتراطات اللذة الضرورية للشعور بها. يشاطر (فري) الفيلسوف الايطالي هذا الاتجاه، بأن اللذة هي انقطاع الألم، وإنها ليست ايجابية على كل حال. وهذا هو حال الفلاسفة المتشائمين أمثال (دوهارتمان) و(شوبنهاور) الذين استدلوا بالألم على بؤس الحياة وشقائها، إذ يقول (شوبنهاور) بأن الألم جزء من الوجود الحياتي، " وليست اللذة سوى غيابه المؤقت"[5]. واللذة عندهم وسيلة لإثارة الرغبة وزيادة في الآلام. على الرغم من صحة آراء هذا المذهب في ربط اللذة والألم بالفاعلية، إلا أن المخرجات قد لا تكون منطقية وصائبة، لأن الفاعلية لا تولّد الألم دائماً، وإلا أغُرِق الإنسان في لجة لذة السكون والثبات، وان الحياة ليست كلها جهاد وشقاء وبؤس، لأن قد يولّد الجهاد والفعل لذة في حدود الاعتدال الطبيعي، وان الانقطاع عن العمل قد يولّد الألم، وان اللذة قد تفضي إلى لذة أخرى وتولّدها وتعقبها، وان الألم قد يتولّد من انقطاع الألم، أي من غير الممكن جعل الألم ماهية الحياة وفاعليتها، وهذه الحقائق هي خلاف ما جاء به أصحاب الفاعلية ينبوع الألم. أما الفريق الثاني والذي أجمع مريدوه وفلاسفته على عدم قبول نظرية (شوبنهاور) والمتشائمين وقبول برأي (أرسطو) ومبدأ نظريته القائل، بأن اللذة تتولّد من الفاعلية، وبذلك ينحى هذا الفريق بأن (الفاعلية هي ينبوع اللذة)، وان السعادة والسرور لا يتحققان إلا من خلال الفعل، لا سيما في الفعل المعتدل، وهي على رأي (هاميلتون) انحصار اللذة بين ألمين، وعدم تواجدها في الإفراط ولا التفريط في الفعل، بل في الفعل المعتدل. أي بمعنى أن يكون الفعل المصروف أقل مما يعطيه الجسد من تعويض، أي لا بد من تحديد الفعل المعتدل وفقاً للكمية المدخرة والمتوافرة، أي حسب الإمكان، أي لا بد من تعادل بين الفعل المصروف وما هو ممكن أن يوفره الجسد من تعويض وطاقة. وهذا هو اعتقاد (غروت)، بتوالد اللذة من خلال وجود التعادل بين الكمية المصروفة والقوة المدخرة، مع وجود الاختلاف في الأشخاص وطباعهم، فما يؤلم شخص قد يكون لذة لشخص آخر، فلكل شخص مقياس خاص به، أي اللذة والألم تختلف من شخص إلى آخر باختلاف الطبائع والمزاج. وقد أضاف (استورات ميل) ملاحظة يمكن التعديل بها نظرية (أرسطو)، بتولّد اللذة من خلال الفعل المعتدل، الذي يختلف باختلاف طبائع الأشخاص ومزاجهم، ومن ثم بحسب المؤثر ونوعه، فهو يضيف المؤثر ونوعه، لأن بعض المؤثرات تكون ملائمة والآخر منافياً في الدرجة والمقدار[6]. وقد يشوب هذه النظرية ملاحظات وآراء ومناقشات، لأنها قائلة على وصف دخيلة النفس وما يجري فيها وما يعتريها، دون توضيح الأسباب وتعليلها، فضلاً عن مجهولية طبائع الأشياء واختلافها، وربط المجهول بالمجهول، وهذا خلاف التعليل العلمي الصحيح الذي يوجب ربط المجهول بالمعلوم، بالإضافة إلى سعي هذه النظرية إلى تعليل الأشياء بلغة الميول والنزعات واختلافها وعدم ظاهريتها وغموضها أكثر من اللذة والألم ذاتها.لذا فعلم الحياة أقرب من علم النفس في الكشف عن الميول والنزعات، لأنه يعلّقها ببنية الجسد، في حين يكشفها علم النفس بوساطة اللذة والألم، وعلم الحياة يعين شروط البقاء ويستنبط جملة من الميول والنزعات ويطابق بين حاجة الجسد وآثار النفس، فيجد المطابقة بين اللذة للفعل النافع، والألم مطابق للفعل الضار، وهذه المطابقة خاضعة لقانون التكيف، لذا فالعوامل الحيوية ونظرية التطور تقتضي مطابقة اللذة للمنفعة والألم للمضرة، في حين علم النفس لا يقرر وجود نزعة خفية إلا إذا دل عليها لذة أو ألم، فعلم الحياة يساعد علم النفس في آلية تفسير حصول اللذة والألم، لأن الأخير لا يقدم ذلك الكشف عن تلك النزعات الخفية، ولا يستدل عليها إلا باللذات والألم المتصل بها، بينما يبحث علم الحياة عن تلك النزعات بحثاً موضوعياً، إذ يقارن بين شهوات الجسد وحاجاته وبين نزعاته، وان تمكن من ذلك، كان تعليل اللذة والألم بالنزعة والميل تعليلاً علمياً ناجعاً وموافقاً، كما إن علم الاجتماع والعوامل الاجتماعية يقدم المساعدة لعلم الحياة وعلم النفس تلك الإيضاحات للنزعات المكتسبة، وتعليل اللذات والآلام المتصلة بها، على مبدأ إن علم الحياة لا يستطيع تبديد الشبهات في تعليل تلك اللذات المكتسبة، لأنها أقرب إلى علم الاجتماع منه إلى علم الحياة، وبوصف الإنسان صائر إلى التكيف الحياتي حسب ما تشترط عليه

---

[1]. لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، مج٢، ط١، تعريب خليل أحمد خليل، (بيروت: منشورات عويدات،١٩٩٦)، ص٩٨٩. ومج١، ص٣٠٠.
[2]. صليبا، جميل، علم النفس، مصدر سابق، ص٢١٠، ص٢١١.
[3]. المصدر نفسه، ص٢١١.
[4]. المصدر نفسه، ص ٢١١.
[1]. سيلامي، نوربير، المعجم الموسوعي في علم النفس، ج١، مصدر سابق، ص٢٩٠.
[2]. صليبا، جميل، علم النفس، مصدر سابق، ص٢١٣- ص٢١٧.

البيئة، وفقدان هذا التكيف يولّد الألم. فلكل حياة اجتماعية ذو تأثير في نفسية الإنسان مولدةً نزعة مكتسبة، وفي حال موافقة الفعل لهذه النزعة وجد الإنسان لذة وبخلافه وجد الألم[١].

وظيفة اللذة والألم

تقوم اللذة بوظيفة مهمة في الحياة، بوصفها عاملاً حافزاً ومشجعاً للعمل وتقوي الميل وتغذي الرغبة، وهي تقدم شعوراً بالرضا والسرور المرتبط بنوع من الإحساس المستساغ أو إشباع حاجة أو ميل، وهي على الرغم من عدم استقرارها واستسلامها للشبع، إلا إن مفعولها قائم في " توجه فاعلية الفرد على درب التكيف"[٢]. حيث ذهب فلاسفة الأخلاق منذ القدم بالقول، بأن اللذة غاية الحياة وخيرها الأعلى، إلا إن الحقيقة ليست كذلك، بوصفها غاية عليا وأساس الفعل، واللذة كما ذهب (أرسطو) بأنها " كمال نهائي ينضم إلى الفعل ويتوجه، فالأم التي تجد لذة في التضحية بنفسها في سبيل أولادها لا تبحث بالتضحية عن اللذة، بل عن سعادة أولادها. لا شك أن اللذة ساعدت على التضحية وجعلتها حلوة، إلا أنها ليست علتها الضرورية ولا هي غايتها. وكذلك البخيل الذي يجد لذته في جمع الذهب، فهو مولع بالذهب لا باللذة"[٣]. فاللذة دليل الإنسان إلى غايته، وهي منعشة للقوة ومجددة للنشاط ومحببة للحياة والفعل ومثبتة على الإقدام ومتابعة الفعل، وغاية الحياة هي الفعل لا الانفعال، على الرغم من إن اللذة ليست دليلاً صائباً في كل الأوقات، في حال خروج الفعل عن حد الاعتدال، حيث يتولّد الألم وتقل الفاعلية. أما وظيفة الألم فهو أيضاً نداءاً ودعوة للإنسان إلى العمل ويبعث النشاط والاستجابة، وهو أيضاً دليل ومرشد للنفس لحفظ الجسد. وقد ذكر فلاسفة التقشف محاسن الألم وعدوه أساس الحياة الأخلاقية، بوصفه بلاءاً للنفس، ومن ثم هو يولّد الشجاعة والصبر والإخلاص. فالألم نار تنضج فيه النفس على حد تعبير (مونته ني). ويصف (الفريد دوموسه) الإنسان بأنه صانع والألم معلمه، ولا يمكن معرفة الإنسان حقيقة نفسه إلا من خلال ألمه، فالألم مرشد ومعين لبلوغ الهدف والغاية. إلا انه ليس دليل صادق دائماً في حال عدم اعتدال حد الفعل، فالألم الشديد هو ضار وغير نافع في فاعلية النفس والجسد[٤]. لذا فاللذة والألم يقومان بدور كبير ومهم في الحياة الإنسانية، وفي معرفة حال الجسد والنفس وحاجاتهما ورغائبهما. فاللذة النفسية تقرب من الفضيلة والألم النفسي يبتعد عن الرذيلة.

المؤشرات التي أسفر عنها الإطار النظري

١- ثنائية اللذة والألم ظاهرة انفعالية أولية بسيطة خالية من التعقيد. فاللذة إدراك الملائم ونيل لما هو عند المدِرك كمال وخير، تحددها الحاجات والميول والرغبات بغية الإشباع. والألم إدراك ونيل عند المدِرك آفة وشر وعدم حصول المرجو، من خلال المصدات وسوء التكيف وعدم التوافق والإمكانات والقابليات التي تعيق تحقيق الأهداف، وتمظهر الحالة الحيادية الوسطى في حال عدم تولد اللذة والألم إلا بمقدار بسيط يكون متأملاً.

٢- اللذة حالة شعورية تدل على اتصال أفعال الجسد بالقوى الخارجية ومؤالفته إياها دالةً على التكيف مع زيادة في الطاقة، والألم حالة شعورية يكشف عن النزاع القائم بين الجسد والقوى الخارجية دالاً على عدم التكيف مع استنزافه للطاقة. وهما متحدان وممتزجان ومتواجدان في حياة الفرد، سواء كان نفسياً أم جسدياً بوصفهما نتيجة طبيعية لإحساساته، لا لذة دون ألم، ولا ألم دون لذة، إلا بالخروج عند حد الاعتدال الطبيعي والمنطقي للكائن الحي.

٣- يتعدى عمل اللذة والألم بين الجسد والقوى الخارجية، إلى المنظومة النفسية الداخلية والشعورية والوجدانية، مع زيادة ونقصان في الطاقة والفعل. فهما آلية بيولوجية فسلجية نفسية.

٤- أنواع اللذة والألم: جسدية، نفسية، خيالية وهمية، عقلية روحية، كل لها أهدافا ومناخاتها وظروفها وفعلها وطاقتها وأثرها وتأثيرها.

٥- تختلف اللذة عن الألم من حيث الكيفية والكمية وعلى الصعيد النفسي والأخلاقي. ومن حيث الشدة والدرجة بالاختلاف الفرد واستعداداته وإمكاناته وقابليته وظروفه في الميادين كافة. ومن حيث المدة والطول، وتكرارها يخفف كمالها وشدة وطأتها.

٦- ثنائية اللذة والألم شيء نسبي تظهر بالتضاد وتقوى أثراً بالتباين.

٧- أولية الألم وسلبيته بوصفه أساس الحياة، واللذة تخرج منه ووسيلتها بحسب رأي المتشائمين من الفلاسفة. وأولية اللذة وايجابيتها بحسب المتفائلين. وهما أوليان وايجابيان وحضور واحد لا يعني بالضرورة حضور الآخر وتولّده، وانقطاع أحد يولّد الآخر، فهما مستقلان كلٌ بشروطه ومناخاته، فليس الألم فقدان اللذة، والعكس صحيح أيضا، حسب رأي ثالث.

٨- تنحل طبيعة ثنائية اللذة والألم في المذهب العقلي، إذ لا تخلو من عناصر فاعلة ذهنية وفكرية، وأثرها في إحداثها ومطابقتها للاعتقاد. وتنحل في نظريات الفاعلية بوصفها ينبوعاً للذة والألم.

٩- وظيفة اللذة: عامل محفز ومقوي للعمل ومغذية للرغبة، وتقدم شعوراً بالرضا والسرور والهناء، وهي ذات منطلقات ذاتية تنزع إلى إشباع حاجة وميل مع المواضيع الأخرى، وهي موجه للفرد على التكيف بغية الابتعاد عن التوتر، في حدودها الطبيعية والمعقولة. وتفسر بعض السلوكيات الإنسانية.

---

[٢]. المصدر نفسه، ص٢١٨- ص.٢٢٢

[١]. سيلامي، نوربير، المعجم الموسوعي في علم النفس، ج٥، ص٢١٩٦.

[٢]. صليبا جميل، علم النفس، مصدر سابق، ص٢٢٣.

[٣]. المصدر نفسه، ص٢٢٤.

١٠- تدعو وظيفة الألم الإنسان إلى العمل وباعث على النشاط والاستجابة، ودليل ومرشد للنفس لحفظ الجسد، ومولّد للشجاعة والصبر والإخلاص، ومرشد ومعين لبلوغ الغاية والتكيف، وفي حدوده الطبيعية والمعقولة.

الفصل الثالث

الإجراءات

مجتمع البحث:- يشمل مجتمع البحث جميع النصوص المسرحية العربية وفقاً للحد ألزماني والمكاني، والتي يتوافر فيها ثنائية اللذة والألم.

عينة البحث:- شملت عينة البحث ثلاثة نصوص مسرحية، اختيرت قصدياً للمسوغات الآتية:

١- تمثل المجتمع الأصلي للبحث.

٢- تنوع في الحد ألزماني والمكاني لكتابها واختلاف مرجعياتهم الفلسفية والفكرية والفنية.

٣- التنوع في أطروحاتها الفكرية ومعالجتها الفكرية والدرامية.

٤- يمثل كتابها أحد الرموز المهمة في كتابة النص المسرحي العربي.

٥- اقترابها أكثر من المؤشرات الإطار النظري.

أسم المسرحية	أسم المؤلف	سنة التأليف	البلد
جثة على الرصيف	سعد الله ونوس	١٩٦٣	سوريا
مأساة الحلاج	صلاح عبد الصبور	١٩٦٦	مصر
الجنة تفتح أبوابها متأخرة	فلاح شاكر	١٩٩٨	العراق

منهج البحث:- أعتمد الباحث المنهج الوصفي (التحليلي) في تحليل العينة.

أداة البحث:- أعتمد الباحث المؤشرات التي أسفر عنها الإطار النظري، أداةً رئيسة في تحليل العينة.

تحليل العينة:- عينة (١) مسرحية: جثة على الرصيف• تأليف: سعد الله ونوس

يحمّل (ونوس) نصوصه المسرحية بعداً فلسفياً يقترب من الوجودية، قلق الوجود، وبعداً قومياً وفق ما يميله عقله المتمرد والرافض لطبيعة الحياة ونوع السلطة مع انهزامية الإنسان وخوفه القابع داخله، الخوف من الآخر، الخوف من السلطة وانتصارها الدائم عليه، وما تخلفه على ذاتيته ونفسيته ووجوده من هموم وتعطيل الرغبات، تعطيل الوجود والعيش كما يجب أن يكون الإنسان الحر. و مسرحية (جثة على الرصيف) تحاول أن تؤشر عبثية الوجود اتجاه ضغط السلطة وما تخلفه على الإنسان من خوف وجوع وتشرد وعوز، لتحيل الحياة والواقع إلى خراب وأرواح منهزمة عاطلة حائرة، وبات إنسان (ونوس) ووجوده بحجم ما يرى منه، بالتجاوز على ماهيته وكينونته وما يحمله من تاريخ ووجود (الحجم المحتجب). ويجوب فضاء النص ذلك الرفض والتمرد، مع المحاولة باستنطاق تصور مبدأ فكري قائم على الاستنكار وبث روح الإرادة والاستنهاض ولو على ركام الإنسان، لمواجهة عبث السلطة المطلقة وقدريتها، واجتهاده في مصادرة أي شيء وكل شيء ورجمها. والمسرحية تصور هموم الإنسان ورغباته وقدره أمام عبثية صارخة، وهو يصارع الجوع والبقاء، صراع الوجود والهوية، صراع الذاتي والإنساني. وقد حمل النص عديد من ثنائية اللذة والألم وعلى مصير شخصياته المتناقضة وجوداً وماهيةً وكينونةً وهويةً.حملت شخصية (المتسول) عديد من أنواع الألم وعلى الصعيد الجسدي والنفسي، إذ يفترش قارعة الطريق متسولاً لا يسد رمقه من الجوع ولا يستر جسده العاري من البرد، حيث لا مأوى ولا عيش كريم في أبسط حدود العيش. وبذلك يصور (ونوس) الفارق الطبقي بين بني البشر، الطبقة المعدمة الفقيرة التي تمثل عامة الشعب، والطبقة الراقية والمتنفذة والمتمثلة بالسلطة. فشخصية (المتسول) تظهر بشكل متكور وهزيلة وذو وجه أرزق وكأنه ظلاً للموت، نتيجة الجوع والعوز والفاقة، إلى جانب الخوف من المصير المجهول وقمع السلطة ورفضها تسكع المتسولين النوم والمبيت على أرصفة الطريق، لاسيما تلك القريبة من قصور السلطة ورجالاتها.

المتسول: أيضاً.. وأيضاً.. يوم سادس خلف خامس، لا يبدو أن لهذا أحداث ما. (إلى رفيقه) لعلك تعلم الآن.. من يدري؟ لو يمكنني اقتلاعه.. أو لو أن الأمر ينتهي. نعم، ينتهي بأسرع ما يمكن.. وبلا مزيد من الآلام. لا ريب أنها شكليات، أنت نفسك لا تبالي بها. إني أتصورك تسخر من المسألة كلها. أليس كذلك؟ ولكن لا أعلم لماذا! لم أستطع الإقدام عليها.(هامساً) أشعر بالخوف.. لا أصدق أن الليل قد انقضى أخيراً.

الشرطي: لا.. لا.. أتعرفان أن النوم على الأرصفة ممنوع؟ ص٣٩٣، ص٣٩٤

• ونوس، سعد الله، الأعمال الكاملة، مج١، ط١، مسرحية جثة على الرصيف، (بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٤).

فتكرار الحياة الرتيبة والقاسية والخوف والآلام هي غلاف حياة مثل هذه الشخصيات، وهي الأعم الأغلب من الناس، والتصريح الرمزي لمسبباتها بارتباطها بما هو أعلى، ويعني (السلطة). كما إن شخصية المتسول تحلم بلذة العيش الكريم، حيث الدفء والنوم والشبع الجسدي والعائلي، لكنها لا تطيلها، لكنها تحس بها، فهو ميل للإشباع ولو بالتصور.

المتسول: هل غادرت بيتك منذ زمن طويل يا حضرة الشرطي؟

الشرطي: لا شك أن البيت دافئ جداً في هذه اللحظة، والمدفأة! ألا تزقزق النار فيها؟ نار متوهجة حارة.

الشرطي: نعم والله.. إنها تتوهج الآن. والدفء يغمر الغرفة كالأحلام.

المتسول: لو أنك تجلس هذه اللحظة مسترخياً بقربها.

الشرطي: أن الواجب لا يحترم الراحة.

المتسول: أتصور كم كان الفراش دافئاً حين غادرته هذا الصباح!

الشرطي: ليس هناك أقسى من مغادرة الفراش، في مثل هذا اليوم الكئيب.

المتسول: لا شك أنك تمتعت بنوم هانئ تحت الأغطية السميكة. الأحلام الجميلة لا ترفرف إلا في الأماكن الدافئة. ص٣٩٤، ص٣٩٥

يصور (ونوس) هذا التناقض المعيشي بين هاتين الطبقتين، حيث لذة الدفء والنوم الرغيد والهدوء وروعة الحياة داخل البيت، البيت الذي يمثل رمزاً للسلام والسكينة والاطمئنان والمحبة والأمل واستمرارية الحياة، والألم في الخارج، حيث الشارع والليل والبرد والجوع والتشرد واللاهوية واللاإنتماء والمصير المجهول والموت.

المتسول: ... يا حضرة الشرطي، هل سمعت خلال الليل الأصوات الغريبة؟

الشرطي: أصوات غريبة!

المتسول: نعم.. لا أعرف ماذا؟ خوار حزين ظل يتردد طوال الهزيع الأخير من الليل.

الشرطي: لم أسمع شيئاً.. كنت نائماً آنذاك.

المتسول: كم كان حزيناً! للوهلة الأولى ظننته نذير القيامة. ص٣٩٦

ينتاب (المتسول) ألم فراق زميله المتسول الآخر الذي زامله غربة الحياة والعيش على الرصيف، متمنياً لذة من نوع آخر، لذة الخلاص من الألم والتشرد والجوع وضياع الهوية بالموت، لإراحة باله وخلاصه الوجودي.

المتسول: هدئ من روعك يا حضرة الشرطي.. أنت تعلم أن كل الوسائل عاجزة عن إيقاظ الموتى.

الشرطي: الموتى؟

المتسول: كان يؤلمني جداً أن يتركني وحيداً. تمنيت إلا أبقى بعده طويلاً. وعندما يبست ساقاي ظننت أنني سأتبعه. ولكن.. ص٣٩٦

يقدم (ونوس) حكمة وعلى لسان شخصياته الفقيرة البائسة، حكمة المعرفة والقناعة والألم الداخلي والتحمل والصبر وعدم الاحتجاج، لقلة حظها في الحياة، حظ العيش ومقابلة الآخر ومساواته، ومقابلة السلطة، أنه الألم ولا شيء سوى الألم.

المتسول: أعتقد أن العمل الوحيد الممكن هو دفنه.

الشرطي: دفنه؟

المتسول: أجل.. وأؤكد أنه لن يكترث لو كان القبر ضيقاً أو عارياً من الزخرفة. المهم فقط.. حفرة يتكوّم فيها ولا شيء آخر. ص٣٩٧

المتسول: من يدري؟ ليس من السهل فهم كل ما يصيبنا. أمر غريب. ص٣٩٨

الشرطي: أتنطق الحكمة؟ ليحرقك الشيطان. لو كان الظرف ملائماً لعلمتك أجود الحكم.

المتسول: لو فعلت، فلن يكون بوسعي الاحتجاج. ص٣٩٨

تظهر شخصية (السيد) وهو يمثل الجاه والسلطة، وهو رجل وجيه تدل عليه ثيابه الفاخرة والغالية التي تقهر البرد مهما اشتد، وهو

يجر كلبه السمين المتهادىء وذو هيأة ذئب، معلقة في عنقه سلسلة جميلة. هذه الأوصاف التي يقدمها (ونوس) تدل على كلاب السلطة والحاشية والتي قد أشبعت حتى التخمة ليدل ذلك على سمنها، في حين عامة الشعب يعيشون في فقر مدقع وقد تيبست أطرافهم من البرد والجوع في العراء. وتهادىء المشي دلالة على التبطر والاستهانة بالآخر، والنظرة الذئبية دلالة الشراسة والقتل والموت. وان هذه الطبقة تلتذ بإيذاء الآخرين وتلتذ بآلامهم في سبيل مصالحهم الشخصية وإرضاءاً لنزواتهم الشخصية الضيقة. غير معتبرين للآخر، لا سيما إذا كان من الطبقة المعدمة والفقيرة. المهم تحقيق رغباتهم ولذاتهم النفسية والجسدية.

السيد: ... هل مات في بداية الليل أم في آخره؟

المتسول: فيما أذكر، بعد منتصف الليل بقليل.

السيد: لا بأس إني أفكر في شرائه؟! **ص٣٩٩**

شراء جثة إنسان ناضجة وغير متفسخة لتكون وجبة غذاء للكلب، الذي يفكر صاحبه به وبأكله أكثر مما يفكر بأخيه الإنسان، الإنسان الذي مات جوعاً وبرداً، هكذا يكون مصيره.

السيد: كفى يا مرجان، أقسم أني سأطعمك حتى تنفجر معدتك.(إلى المتسول) والآن ماذا قلت أيها الذي لا أسم له؟ ص٤٠٠

يبدو أن المتسول يمثل (الأنا الجمعي) حين ينعته (السيد) بالذي لا أسم له، بآلامهم واغترابهم وعوزهم وتشردهم، الألم النفسي والجسدي. وبذلك يرفض (المتسول) بيع أخيه الإنسان والتفريط به حتى وان كان ميتاً، إنها لذة التحدي وحضور الأنا ضد الألم (السلطة) وجبروتها وأدواتها، لكنها تكون لحظوية زائلة، بسبب ضعفها وخوائها إزاء الآخر بجبروته وسطوته المتمثلة بشخصية (السيد)، الذي يتحدى (المتسول) وغيره، بوساطة القانون والقوة والمال. إنها لذة القوة والحضور والنشوة والتكبر والعنف.

السيد: إن القانون على أي حال لا يمنعني من شرائه. أليس كذلك أيها الشرطي؟

الشرطي: القانون؟ نعم يا سيدي إن القانون لا يمنعك... **ص٤٠١**

يغور (السيد) عميقاً في لذته وتسلطه وجبروته حتى في شراء الجثة، ذلك بوضع شروط بأن لا تكون نتنة ومتفسخة، حتى تكون وجبة غذاء صالحة للأكل للكلب.

السيد: طبعاً.. فلا بد أولاً من التحقق من مسألة موته. **ص٤٠١**

السيد: لا بأس.. بقيت مسألة أخرى. ينبغي التأكد من أنه لم ينتن بعد. **ص٤٠٢**

السيد: ... من حق الشاري أن يعاين بضاعته. القانون يحمي هذا الحق. أليس كذلك أيها الشرطي؟ ص٤٠٢

يصل الحد بإتيان فعل الألم إلى تقطيع الجثة، لبيان عدم تفسخها ونتنها، حتى تكون عملية الشراء سليمة وقانونية، ولكي تكون طعاماً جيداً وصالحاً للكلب.

السيد: تناول مديتك إذن.. وأبدأ في شقه.

الشرطي: مديتي؟ أنا؟

السيد: لا أعتقد أنهم زودوك بها من أجل لا شيء. ...

الشرطي: حاضر يا سيدي. **ص٤٠٢**

يصل حد ازدراء (السيد) بـ(المتسول) وآلامه بعدم إعطائه ثمن الجثة التي اشتراها، لأنه لا يمت بصله له ولا قرابة، بل إنهم مجرد صديقين جمعتها الصدفة ووحدتهما، وجودهما المتعب كان مؤقتاً زائلاً بالانفصال والهزيمة والموت لا محالة. ويعد الجثة مُلك للسلطة وجدها ميتة مركونة على الرصيف. لذلك وصل حد ألم بـ(المتسول) إلى حد لا يطاق، ذلك بعرض نفسه للبيع وبأبخس ثمن، لمداواة الجرح الغائر في المنظومة الجسدية والنفسية والوجودية، لكن مع هذا أن (السيد) لا يشتريه لأنه حي. هذا الانهزام والقهر الخارجي والداخلي والآلام سببه انعدام التوازن الطبقي والاجتماعي والسياسي والفكري والاقتصادي والذي صوره (ونوس) في هذا النص.

السيد: فما قرابتكما؟

المتسول: لسنا أقرباء.

السيد: إذن لا حق لك في ثمنه.

المتسول: لا حق لي؟

السيد: أبداً.. الثمن في مثل هذه الحالة للخزينة.

المتسول: كنا صديقين حقيقيين..

السيد: القانون لا يبالي بالصداقة. أليس كذلك يا شرطي؟

الشرطي: نعم يا سيدي، القانون لا يبالي بالصداقة.

المتسول: حقاً، القانون لا يبالي بالصداقة.

المتسول: ولكن.. أفكر أيها السيد، لعلك أن تشتريني.

السيد: أشتريك! لم أجن بعد حتى أشتري أحياء.. **ص٤٠٣، ص٤٠٤**

عينة (٢) مسرحية مأساة الحلاج• **تأليف صلاح عبد الصبور**

ينطلق (عبد الصبور) في بناء مسرحياته برفض الواقع السلبي والتمرد عليه، حيث الفقر والجهل والكذب والنفاق والظلم والتعسف الاجتماعي والحياتي، والتي هي جوهر مأساة الوجود الإنساني وحزنه وانكساره وقهره وانهزامه إزاء السلطة وحكامها الجائرين غير المعينة زمناً ولا شكلاً، والضغط الاجتماعي الذي يعيشه الإنسان ويحسه ويشعر به جراء تلك السلطة، ليحله منعزلاً مغترباً فكرياً ومكانياً. فضلاً عن مناداته بالحرية والحق والعدالة والفضيلة والصدق. تأثر (عبد الصبور) في مسرحية مأساة الحلاج، بمسرحية (إليوت) جريمة قتل في الكاتدرائية موضوعاً وتوجهاً في الكتابة المسرحية. فحلاج (عبد الصبور) يتناص مع قديس (إليوت) بيكت، فقديس (عبد الصبور) لم يكتفِ بالوقوف بتجربته الصوفية داخل محرابه المقدس، بل هو ينزع إلى الشارع وعامة الناس، بغية الإرشاد والإصلاح الاجتماعي والأخلاقي والسياسي والديني ورفع الظلم متسيداً دوره الاجتماعي والإصلاحي، هذا النزوع وجد مصدات من قبل السلطة التي وجدت في ذلك تهديداً سافراً لوجودها وبقاءها، وهذه الوقفة الضدية له من قبلها ما هي إلا عقاباً لموقفه الفكري الصوفي الديني ومناجاته وآراءه عن الفقر والقهر والانهزام، ومراسلاته السرية لخُلاصهِ من المرشحين لشغل المناصب العليا. هذا الانحلال والتفسخ الاجتماعي كان له صدى مؤلم لدى (الحلاج)، لأن الكلمة المؤثرة في قلوب الناس وعقلهم وتنذرهم بالواقع السلبي، هي أقوى أثراً وتهديداً للسلطة وقمعها. لذلك تعرض لبطشها وعقابها على الرغم من صموده واستشهاده، إلا أنه بقي في الذاكرة الجمعية، قديساً منقذاً قبلةً لعديد من آمن به وصدّقه. فتبتدئ المسرحية بقتل (الحلاج) وصلب جثته على الشجرة، وهي محاولة للكاتب في تصوير النفي الفكري والجسدي والقهر المادي، مما أوجد نوعاً من الألم الجمعي لدى عامة الناس الذين أقروا هم بقتله، لأنهم لم يصدقوا قوله. من خلال إيهام الناس بكفره وزندقته، وشراء إرادتهم بالمال لأنهم فقراء، فالهزيمة واقعة بهم لانهزامهم خوفاً وطمعاً.

المجموعة: ... أعطوا كلا منا ديناراً من ذهب قاني براقاً لم تلمسه كف من قبل قالوا: صيحوا.. زنديق كافر صحنا زنديق كافر... ص١٠

يصطدم (الحلاج) بألم آخر، هو التضاد الفكري، لاسيما أصحاب الفكر النظري البعيد والمنعزل عن الواقع والمتمثل في شخصية (الشبلي)، الحامل للكلمات والشعارات، الموقف السلبي البعيد عن هموم الناس ومشاكلهم، فضلاً عن تقوية السلطة جراء هذا الانكفاء وعدم التصدي والإصلاح للمفاسد، والاقتصار برفع الكلمة والشعار دون تنفيذ.

مجموعة الصوفية: نحن القتلة أحببناه، فقتلناه... قتلناه بالكلمات... أحببنا كلماته أكثر مما أحببناه فتركناه يموت لكي تبقى الكلمات

التاجر: من أنتم؟

المجموعة: أصحاب طريق مثله **ص١١**

يحمل (الحلاج) لذة روحية فيما يملك من حضور وتقرب إلى الله بزهده وعلمه ووجده وشطحاته الصوفية، فهو المنقذ من الضلال والمرشد الروحي لعامة الناس، على الرغم من الخلاف الجوهري مع مجايليه وأصدقائه من الصوفية وأصحاب الرأي.

الشبلي: يا صاحبي وحبيبي "أو لم ننهك عن العالمين" فما انتهيت... وهل يساوي العالم الذي وهبته دمك هذا الذي وهبت. ص١٦

يجيبه (الحلاج)وبلذة روحية وذات زهد وورع وتقوى، وان دمه المراق هيناً ورخيصاً للمهمة الإصلاحية والأخلاقية والاجتماعية المكلف بها شرعاً.

الشبلي: يا حلاج، أسمع قولي لسنا من أهل الدنيا، حتى تلهينا الدنيا...

الحلاج: لكن.. يا أخلص أصحابي، نبئني... كيف أميت النور بعيني ...هل تدري يا شيخي الطيب لمَ نوّر ربي قلبك؟

• عبد الصبور، صلاح، مأساة الحلاج، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦).

الشبلي: هذا حالي يا حلاج...

الحلاج: لا، أني أشرح لك لمَ يختار الرحمن شخوصاً من خلقه ليفرّق فيهم اقتباساً من نوره هذا، ليكونوا ميزان الكون المعتدل ويفيضوا نور الله على فقراء القلب... ص١٨- ص٢١

والفقر عند (الحلاج) فلسفة، فهو يعده مرادفاً للشر والخطيئة والرذيلة والقهر المادي والانهزام الروحي، الفقر يعني الألم والجوع والفساد والتعسف والكذب والطغيان، يعني الضياع والتعذيب والنسيان، أنه السجن الروحي والمعنوي والمادي، أنه غياب العدالة والحق وعدم معرفة الله.

الحلاج: هبنا جانبنا الدنيا ما نصنع بالشر؟

الشبلي: الشر ماذا تعني بالشر؟

الحلاج: فقر الفقراء جوع الجوعى، في أعينهم تتوهج ألفاظ لا أوقن معناها... والمسجونون المصفودون يسوقهمو شرطي مذهوب اللب قد أشرع في يده سوطاً لا يعرف من في راحته قد وضعه من فوق ظهور المسجونين الصرعى قد رفعه ورجال ونساء قد فقدوا الحرية تخذ تهم أرباب من دون الله عبيداً سخرياً يا شلبي الشر استولى في ملكوت الله حدثني.. كيف أغض العين عن الدنيا إلا أن أظلم قلبي؟ ص٢٢- ص٢٣

تنبع قدرة (الحلاج) ولذته وقوته تستمد من قوة كلماته التي تستقر في القلب والذهن، ومن إيمانه المطلق بالله الذي لا تشوبه شائبة، الإيمان بالموقف والكلمة الحقة، والتمسك والثبات والجلد مهما كانت الظروف والمواقف.

الشبلي: يا حلاج لا أدري للصوفي صديقاً إلا نجوى الليل وبكاء الخوف من الدنيا... قل لي يا حلاج أوثقت بأن وجوه الأمة ممن تعرف أن ولوا ظلوا أهل مودة

الحلاج: لا يعنيني أن يرعوا ودي أو ينس وه يعنيني أن يرعوا كلماتي ص٢٩- ص٣٠

يذوب (الحلاج) وجداً ومصيراً بالذات الإلهية والتمسك بها، وهي من قمم اللذة الروحية والصوفية، وعدم الهروب والانهزام والانزواء، بل تبصير الناس ودعوتهم إلى الحق والحرية والعدل فعلاً لا قولا، والنزول إلى الشارع، مهما قل الناصر وكثر كيد الظالم، فالله سنده وناصره. وخلع كل ما يعيق تحقيق ذلك، حتى لو كانت خرقة الصوفي، التي تعد حرمة وانعزال عن الآخر،

إبراهيم: مولاي أخشى أن يدركك الكيد الظالم ما تنوي؟

الحلاج: ما يرضاه الرحمن لمخلوق في صورته، ذي روح متصف بصفاته ...

إبراهيم:.. أعداءنا كثر يا مولاي؟

الحلاج: لكن أصحابي أكثر من أعدائي

إبراهيم: لا أبصر مخلوقاً منهم يا مولاي إلا شيخي الشبلي.. وأنا وكلانا مسكين يتحسس خطوه

الحلاج: أصحابي أكثر من أن تحصيهما إبراهيم أصحابي آيات القرآن وأحرفه... كلمات المحزون... أحياء الأموات، الشهداء الموعودون... ألاف المظلومين المنكسرين ص٣٠- ص٣٢

ينزل (الحلاج) إلى الناس وبداية الشروع بهدايتهم، مع استفزاز رجال السلطة له وقسره ببوح سر عشقه الإلهي، ليقتاد سجيناً متهماً بالكفر والزندقة، حاملاً معه ألآلامه وأحلامه في الإصلاح والهداية، ليكون ضحية الفقراء المرضى، ضحية الصمت والخوف والقهر والانهزام.

الأعرج: قد كان يحدثنا بحديث القلب لم يستطع الكتمان، فباح دعني امضي

الواعظ: باح.. بم باح، لكي تأخذه الشرطة؟ لا أدري، وعلى كل فالأيام غريبة والعاقل من يتحرز في كلماته لا يعرض بالسوء لنظام أو شخص أو وضع أو قانون أو قاض أو وال أو محتسب أو حاكم ص٥٣

يُودع (الحلاج) في السجن المظلم ليلاقي جملة من السب والإهانة، على يد سجّانه مع ضربه، لذنبٍ لم يقترفه، إلا أن (الحلاج) لا يأبه بذلك مع ازدياده قوةً وثباتً، وتقهقهر سجّانه وانهزامه أمام صبره وجلده، وهي لذة صوفية، يرتقي بها (الحلاج) ويسمو على حدود الألم الجسدي، فهو هادئ مبتسم متزن نفسياً، مؤمناً متحداً مع الذات الإلهية.

الحلاج: يا صاحب هذا البيت هب ضيفك نوراً حتى يكشف موضع قدميه أو كحّل بسنا ذاتك عينيه يا صاحب هذا البيت ...

ص٥٦

الحارس: لم لا تصرخ؟

الحلاج: هل يصرخ يا ولدي جسد ميت؟

الحارس: أصرخ.. أجعلني أسكت عن ضربك

الحلاج: ستمل وتسكت يا ولدي

الحارس: قلت أصرخ.. أنت تعذبني بهدوئك... أصنع شيئاً يوقفني، أرجوك.. أجعلني أتوقف فأنا قد أنهكت ص٦٦، ص٦٧

يرفض (الحلاج) الهروب من السجن، إلا أن هناك أنتياب فكري وحيرة تجول في خاطره، وهو نوع من الازدواج الفكري والحيرة الذهنية، لعدم التمييز بين من حامل للخير عن الحامل للشر، على الرغم من ثبات الرأي والموقف. فهو بين أمرين، بين الهرب والسيف، وبين الكلمة ومداها وصداها في النفس والعقل. وهذا يعد نوعاً من الألم الفكري.

السجين الثاني: ... لم لا تهرب؟

الحلاج: لمَ أهرب؟

السجين الثاني: كي تحمل سيفك من أجل الناس

الحلاج: مثلي لا يحمل سيفاً... لا أبكي حزناً يا ولدي، بل حيرة من عجزي يقطر دمعي من حيرة رأيي وضلال ظنوني يأتي شجوى، ينسكب أنيني... هبني اختار لنفسي، ماذا أختار؟ هل أرفع صوتي، أم أرفع سيفي؟ ماذا اختار؟.. ص٧٨- ص٨٠

يقدم (الحلاج) لمحاكمة غير عادلة، من قضاة ثلاث، الأول (أبو عمر) وهو غير حامل للذمة، والثاني (ابن سليمان) وهو منافق تافه، والثالث (ابن سريج) وهو أمين وشريف. فيتهم (الحلاج) بفساد العامة وعصيان السلطة والتمرد عليها وتحريضهم على السلطان. وبالكفر والزندقة، دون إعطائه فرصة الدفاع عن نفسه، مع احتجاج (ابن سريج) لأصول المحاكمة. ويأتي خبر عفو السلطان عن (الحلاج) برسالة من الوزير قد بعثها إلى المحكمة، إلا انه أضاف إليها، انه لا ينبغي التراجع والنزول عن(حق الله) من التهم الموجهة للـ(الحلاج)، مع اعتراض (ابن سريج) على هذه المكيدة المدبرة والخبث الظاهر ضد (الحلاج)؟

أبو عمر:" مستأنفاً في الخطاب" لكن وزير القصر يضيف: " هبنا أغفلنا حق السلطان.." ما نصنع في حق الله فلقد أُنبِئنا أن الحلاج يروي أن الله يحل به، أو ما شاء له الشيطان من أوهام وضلالات ولهذا أرجو لو يُسأل في دعواه الزنديقية... ص١١٥

يجابه (الحلاج) بهذا القهر الفكري والتدبير الخبيث والزيف والخداع وجمع الشهود والأدلة لإدانته، من قضاة الحق وأهل العدل وشهود الصدق، للسؤال عن إيمانه، بالمقابل هناك تحشد للعامة الذين أثرت فيهم كلمة (الحلاج)، ذات الكلمة التي أدت به إلى الموت وبفعل العامة ذاتهم.

أبو عمر: ..." إلى جمع من الفقراء" ما رأيكمو يا أهل الإسلام فيمن يتحدث أن الله تجلى له أم أن الله يحل بجسده؟

المجموعة: كافر.. كافر

أبو عمر: بم تجزونه؟

المجموعة: يقتل، يقتل

أبو عمر: دمه في رقبتكم..؟

المجموعة: دمه في رقبتنا

أبو عمر: والآن.. أمضوا، وامشوا في الأسواق... قد كان حيث الحلاج عن الفقر قناعاً يخفي كفره لكن الشبلي صاحبه قد كشف سره فغضبتم لله، وانفذتم أمره وحملتم دمه في الأعناق وأمرتم أن يقتل ويصلب في جذع الشجرة... ص١٢١- ص١٢٢

حملت هذه المسرحية حزمة من اللذات والآلام، حيث القهر والألم المادي والجسدي والمعنوي المتمثل بقتل (الحلاج) وصلبه على جذع الشجرة، وقتل السجين الثاني الذي هرب من السجن، بعد التعذيب والقهر والألم الجسدي والنفسي، فضلاً عن معاملة العامة والاستهزاء بهم بوصفهم فقراء طائعين، ومصادرة رأيهم وإرادتهم بالترغيب والترهيب، بالإضافة إلى شراء الذمم والنفاق والتفاهة والفساد في القضاء، ومساءلة الإنسان عن معتقده ومعرفة كيفية إيمانه، ويضاف إلى ذلك المكر والتدبر والخديعة التي حملها وزير

السلطان، لتصفية (الحلاج) وقتله بعد اتهامه بالكفر، لكي يمحى من ذاكرة العامة، ولا يصبح شهيداً ورمزاً لهم، كذلك ألم الفقر والقهر الفكري، يقابل كل تلك الآلام والقهر لذة (الحلاج) المتمثلة بالوجد والصبر والتوحد مع الذات الإلهية، التي جابه بها كل أنواع الألم والقهر.

عينة (٣) أسم المسرحية: الجنة تفتح أبوابها متأخرة• تأليف: فلاح شاكر

يعالج (فلاح) في هذه المسرحية، موضوع الحرب وما تخلفه من دمار وويلات ونتائج وكوارث على المجتمع بشكل عام والإنسان (الفرد) بشكل خاص، والشرخ العميق والنازف للمنظومة النفسية والوجدانية والروحية والوجودية، فالحرب تثير هماً إنسانيا وألماً جسدياً ونفسياً كان من الصعب تداوي جروحها ونزيفها، ولملمة شمل كيان الإنسان ووجوده وكينونته وماهيته. فالسوداوية والضبابية تغلفان كيان الإنسان وتؤطران حياته وتفكيره، فضلاً عن تعطيل ذلك النبض الحياتي والديمومي لاستمرار الحياة. فالمغامرات تعصف بالذات الإنسانية وتركنها جانباً، فضلاً عن تدمير البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وكل مفاصل الحياة، لإرضاء النزوات الضيقة والسلبية. من هذا المنطلق يؤسس (فلاح) وينطلق في بناء نصه المسرحي، ليبدأ من عودة الزوج الأسير من الأسر بعد سنين عجاف، إذ يبدأ (فلاح) مسرحيته وهي مشحونة بكم هائل من الصراع والألم الذي ينتاب شخصياته.

الأسير: أنتم تخونني.. أنت لست زوجتي. ما أضاعني الأسر.. بل أضاعني. أنك أتلفت ذكرياتي. أهكذا أعود.. أهكذا تكون مملكتي بيتي تسكن حديقته الأشواك... وأنت لم تعودي زوجتي أهكذا أستقبل بعد كل هذه السنوات من الأسر... الباب تتآكل أصباغه ويترك كما الجريح... لقد قتلت أحلامي.. وبيتي.. هذا البيت لم يعد بيتي.. أواه يا بيتي ما تركته هكذا ولا أريد أن أعود إليه وهو خرب.. يا له من خذلان وخيبة. ص٢

عدم التعرف على البيت ونكرانه، ما هو إلا اغترابا مكانياً قسراً وضع فيه، فسنوات الأسر قد غيّرت كل شيء فيه وما فيه، وهي الصدمة الأولى التي يتلقاها (الأسير) بعد عودته من الأسر، وهاهو يحمل الألم الأول بعد ألم الأسر الكبير. البيت قد تغير والاستقبال من قبل (الزوجة) التي طال انتظارها، لم تلق له انتباهاً لوجوده وكأنه شخص غريب، وهي الصدمة الثانية التي يتلقاها، وهي نكران زوجته له.

المرأة: بل أنت لست زوجي

الأسير: إلى هذا الحد غيرني الأسر

المرأة: تسألني إلى هذا الحد غيرني الأسر، أنى لي أن أعرف وأنا لم أشاهدك من قبل

الأسير: يا لها من قدرة أول ما ترينني بعد الأسر تمزحين معي وتحاولين أن

المرأة: أزور زوجي من أجل المزاح

الأسر: هذا أسوأ ما عشت.. أجننت فانتحلت سواي أفي الأوهام تزوجت وصار لي بيت بإنكارك لي ستقتلينني.. ستقتلينني ص٢

تحمل (المرأة) هي الأخرى هماً كبيراً تجسد في انتظار زوجها (الأسير) علّه يأتي يوماً، هذا الانتظار الطويل والصبر المؤلم، تفاجئ بدخول زوجها العائد دون أن تعرفه، فهي تنكره، لأن شكله وملامحه قد تغيرت.

المرأة: أنا لا أعرفك، فلست أنت من أجّل موتي، ولست من تشهى صبري، لم أُفطم من أجلك يا هذا. لست أعرفك فقط بل أنا لا أحب حتى شكلك. ص٣

يستمر هذا السجال بين المعرفة والنكران، حتى ليصل الألم الذي يحمله (الأسير) إلى حد انه قد يتوهم انه متزوج من امرأة، وان هذا كله أحلام وسراب.

الأسير: لم يحدث شيء توهمتك قبل أسري هل هذا ممكن، أن سمحتِ أن أخذ بعض أشيائي التي حلمتُ بأنه ما زالت بانتظاري

المرأة: خذ ما تشاء ص٤

يستذكر (الأسير) من خلال هذه الأشياء ذكرياته ويلملم شتات نفسه ليرجع له الأمل في نفسه، يستذكر مع (المرأة)بعض الأوقات الجميلة التي قضاها معاً، وهي لذة خيالية متصورة، علها تتذكر وتصدّق قصته على انه زوجها.

الأسير: هذا التمثال.. اشتريناه لأننا ضحكنا صُنعه فأحببنا أن نحنط ضحكاتنا فاشتريناه.. رغم انه قبيح وبشع ولكننا أحببنا ذكرياتنا فيه... وهذه المزهرية

المرأة: كرهناها

• شاكر، فلاح، مسرحية الجنة تفتح أبوابها متأخرة، (بغداد: نقابة الفانين العراقيين، مطبوعة على الآلة الطابعة، ١٩٩٨).

الأسير:اشتريناها مضطرين لأن البائع كان يفسد خلوتنا بإعادة عرضها علينا... وهذه.. ذهبت لشراء حذاء لكِ فعدت بها (أقلام ترمى) صرختِ جئت لك بها(يكتب على الأرض) حتى لا تنسيك الحرب أنك في يوم ما كنت تكتب نبضك حتى ولو بشكل خواطر مراهقة.. خذ هذه الأقلام واكتب لي كل ليلة. ص٤

فالحرب والأسر قد لوث كل شيء وغيّر كل شيء، قد دنّس الحب والدفء والمشاعر، خرّب الأسرة وفككها، خلخل العقل والتدبر والتذكر.

المرأة: ليت لي يقين الأسرى وعذاباتهم لكي أوقن بما نسيت

الأسير: وهل فارقت الرصاصة جسد الميت لكي ينساها. فكيف بي وأنا أتعشق موتي لكي لا تكون رصاصة حبك خائبة.

المرأة: لكنك لا تشبهه، أو أنك لست.. تغيرت. ص٥

تتمسك (المرأة) بموقفها الرافض بكونه زوجها وعدم اقتناعها، فهي حائرة مترددة متألمة لحالها. لذلك ينتفض (الأسير) لهذا النكران ليصب لعنته على الحرب وأهوالها وجبروتها، لأنها غيّرت شكله الذي لم تعد زوجته التعرف عليه، أنها الحرب وما يمكن أن تفرزه من ويلات ومآسٍ لهول وقعتها ونتائجها.

الأسير: تغيرت لم لا أتغير وعزرائيل يتنزه بأنفاسي... لم لا أتغير وعزرائيل الرصاص يسكت رفاقك في الملجأ الواحد بعد الآخر. ليلة أسري كافية أن تغير أشكال كل الناس، لم لا أتغير وأنا الحي الوحيد وسط آلاف الجثث....

المرأة: أحس حبك.. لكنك لست أنت

الأسير: لست أنا؟! وما ذنبي إن كانت الحرب تهدي الأطفال شوارب بيضاء.. كلنا عميان بلهاث القلب نهتدي إلى بعضنا. ص٥، ص٦ يحاول (الأسير) أن يجمع قواه الجسدية والعقلية، لكي يرجع كل شيء إلى مكانه الطبيعي، فيحاول تذكير زوجته بكل شيء جميل عاشوه معاً كزوج وزوجة، فيقدم لها الدليل بعد الدليل ليقنعها بأنه زوجها الغائب العائد. ويقدم لها الأدلة العينية والمادية لإثبات ذلك. مفردات الحب التي كانت تحب أن تسمعها، لكنها لا تزال غير مطمأنة وغير مصدقة. فطوله ولون العين ليسا كما عند زوجها، ليتثبت الألم في البنية النفسية لشخصية (الأسير). فالبعد والفراق والحسرة والألم قد أضر به إلى الحد الذي تغيرت فيه كل ملامحه.

الأسير: أنه رعب الحرب، ودموع الأسر هما اللذان يسرقان الألق.. ولون العينين ص٨

الأسير: قزمني غيابك، ولا عناق معكِ لكي أبقى منتصباً فقدانكِ وحده كافٍ لأن يلبسني القبر رداءاً وتريديني أن أعود كما كنت؟؟ ص٨وذات الألم يسكن البنية النفسية والفكرية لشخصية (المرأة)، ولكونها كذلك فهي لم تكن لها القابلية على التحمل، فالحرب تدور أيضاً في قلوب الأمهات والزوجات كما تدور في الجبهات.

المرأة: الجبهة في عقلي الخرف، الحرب في قلبي الواهن.. مثلي مثل الحرب أقتل ذكرى أحبتي ولا أعرف لماذا. ص٩

فألم الحيرة والدهشة تتملكان شخصية (المرأة)، بعد كل الدلائل التي يقدمها (الأسير) في تفاصل الحياة الزوجية واليومية. الأريكة، الغرفة الكتب، التلفاز، الحياة الزوجية.

المرأة: كيف تعرف كل هذا كلك لست أنت وكلك أنت، فأية خيانة حين لا أجد دموع فرحتي بلقياك أرجوك غادرني. ص١٠يتمظهر ألم من نوع آخر لدى (المرأة)، ذلك بتغير شكل الزوج (الأسير) وملامحه دون أن تتغير طبائعه، حنانه محبته، لغته، دون أن يكون لـ(لأسير) تأثير في ذلك، كانت تريده شيئاً آخر يعادل انتظارها وصبرها وتضحيتها، تريده عليلاً، ضائعاً، مربكاً.

المرأة: ... كان يجب أن تقدر تضحيتي وأنا أتخليك عاجزاً، بارداً، لا تتذكر مشاعرك إلا بمعجزة، كنت أبكي.. أبكي وأنا أهيئ نفسي لكي تستعيد الحياة من خلالي، أبكي ساعات وساعات وأنا أحاول أن أذكرك بذكرى تعيد الدم إلى قلبك، آه كم أرقني وأبكاني أكثر من فراقك لي هو كيف أعود بك إلى ما كنت... ص١١ فرغم الألم الذي تحمّله (الأسير) وما عاناه، جوعاً وفراقاً، إلا انه يتشبث بلذة الحلم والنشوة والشعور وقوة الحب تسريان في عروقه ليتجدد لديه الأمل، الأمل بالعودة والحياة.

الأسير:... أشكرك يا حبيبة لأنك أنقذتيني من الأسر. فما كان ممكناً أن أبقى حياً لولاك. شعوري أنك تنتظرينني جعل الأسر فاكهة.... ص١٢ينتقل (فلاح) إلى موضوع آخر، هو من مخلفات الحرب وإفرازاتها. حيث ألم الذل والجوع والعوز والحاجة والتعب، ألم التفكير ماذا تأكل؟ ألم الضياع والجهل وضياع الأحلام والكبرياء وعزة النفس والأصول والعلم. أنه الألم، الألم الساكن في كل مفاصل الحياة.

يوسف المدرس: لا.. لا عناق، أصبعي الصغير يخاف أن أطبق كفي لئلا يأكله الأصبع الذي يجاوره. ص١٥

يوسف المدرس:... كانت تقتلني شهيتي المضربة عن الطعام وأنا.. أنا نفسي لم أتغير، فلم ألان أتشمم رائحة الطبخ عند كل الأبواب في برد حي. أخرس فأنت عزيز قوم مل، مل مل كثرة الطعام فما عاد يحب شيئاً غير الفطام.

ص١٥

يوسف الحارس: أشبه المدرس.. الجوع جعلنا كلنا متشابهين. **ص٢٢**

يوسف الحارس: كنت صديق أحمد.

الأسير: أحمد.. كيف حاله الآن؟ ...

يوسف الحارس: قتل كل أحلامي قبل أن يفعلها واستشهد.

الأسير: رباه لمَ القبور أكثر من الأحلام. **ص٢٣**

وألم الابن الصغير الذي مات مرضاً وجوعاً مخلفاً مرارةً وألماً لدى والده الفقير المتعب.

الأسير: وحامد

يوسف الحارس: كلاهما استشهد

الأسير: حامد؟ أنه صغير.. ليس في عمر أن يذهب إلى القتال أو..

يوسف الحارس: وهل تظن أن القتال كان في الجبهات فقط؟

الأسير: أن لم يكن.. أين إذاً؟

يوسف الحارس: في الشمس

الأسير: الشمس؟!

يوسف الحارس: كانت حرارته تخجل الشمس واصرخ فوق السجادة، رباه.. خذه لبرد الجنة

الأسير: رباه

يوسف الحارس: وكبريائي الذليل يتوسل بالرغيف.. يا رغيف كن عافية كن قصيعاً لا شعيراً

ص٢٣، ص٢٤

يعيش (الأسير) في دوامة المتاهات والذكريات لتتراكم ألآلامه وأوهامه، فهو يعيش جملة من الصور الوهمية الحقيقية. فمن هول مخلفات الحرب تجعل من كل شيء وكأنه وهماً وغير حقيقي، لغرابتها وعجائبيتها، أنها تسحق الإنسان ووجوده وكينونته وماهيته، فضلاً عن نسف كل ما هو جميل وأخلاقي وإنساني. فهو يتوهم بحضور شخصية (يوسف المعلم) و(يوسف الحارس).

المرأة: تخطئ بيت وزوجة هذا ممكن.. لكن تحدث الأموات أيضاً.

الأسير: أهنا عقل أستدل به؟.. أم أوهام أتعرف عليها؟ كان معي.. أحمد أستشهد.. وحامد مات من سوء التغذية.

المرأة: كيف عرفت هذا؟

الأسير: ألم أقل انه كان هنا.

المرأة: هذا مستحيل.. أيكون الجوع والفقدان استبدلا عقلي وقلبي؟

الأسير: أنا وهم أيضاً مثل الحارس والأستاذ.. لقد أنهار ساتري. **ص٢٧**

يبرز(فلاح) ألم آخر خاص بالمرأة، المرأة التي تعيش في ظل الحرب دون معين وسند وحماية وأمان، المرأة الضعيفة التي لا تقدر على شيء لم يقدر عليه الرجال، ألم الفراق والوحدة والضياع والحرمان والجوع والعوز. ألم الخوف على الشرف والعفة والفضيلة والأخلاق.

المرأة: ترملت معدتي عما أحب

الأسير: أسكتي..

المرأة: سقط ساتري فكم ألف عاهرة ستخرج من جسدي لو..

الأسير: أسكتي.. أسكتي.. أيتها الحقيرة

المرأة: أخرس سقط ساتري ليصبح دمي ستري وساتري وسيكون عهراً أن لو نمت شبعه، كان على جوع معدتي أن يسهرني على ذكرياتي لقد سقط أماني. ص٢٨

تتجسد ثنائية اللذة والألم لدى الشخصيتين، ذلك عندما يذكّر (الأسير) (المرأة) بالشامات الثلاث في جسدها، وهو الدليل المادي الأول، والثاني قطعة الثوب التي أخذها في توديعه الأخير لها قبل ذهابه إلى الجبهة، والتي احتفظت به ولا تزال تلبسه، لأنه جزء وقطعة من حبيبها (الأسير) العائد. بعد التعرف واليقين، تطفح لذة الحب واللقاء وعودة الحياة من جديد.

الأسير: إذاً لماذا، أنكرتني؟

المرأة: المفاجأة، اليأس، الحرب الزاحفة إلى العينين، خوفي من الفراق ثانية كل هذا دفعني إلى أن أفعل ما فعلت.

الأسير: لننسى، لننسى كل ما حصل لنعد إلى أسبوعنا الأول من زواجنا، لنبدأ من جديد، فبم تأمرينني.

المرأة: أمرك أن تفعل لي كل ما تحب روحك..

الأسير: لا تحب روحي إلا ما تحبين. ص٣٠

ولكي يجعل (فلاح) هذه الآلام، آلاماً جمعية وليست فردية، يدخل أسيراً ثانياً وثالثاً و، و، و، إلى البيت، ليدعي أنه بيته وزوجته، وبذات المواصفات والدلائل التي حملها وقدمها (الأسير) الأول. ليقدم (فلاح) ويفرز حجم الكارثة التي تسببها الحروب على المجتمع والأسرة والتراكمات والإفرازات السلبية التي تنتجها. والتي تجعل الإنسان ينسلخ من بني جلدته ويحيله أنسانا يائساً مهزوماً مغترباً حتى في بيته ووطنه.

الأسير: ... يجب أن تكون هناك جنة بمقدار عذاباتنا. ص٢٥

يوسف الحارس: ... اللهم أجعل حجارة السجيل رغيفاً لنا.. اللهم نسألك بعض جنتك في جحيمنا الأرضي.. فأي جنة أن كان الصدر يرضع جوعاً... ص٢٦

الأسير: يا حصار أنك تجعل من كل أطفالنا أنبياء لأنهم كفروا بملذات الحياة قبل أن يعرفوها، طفل زاهد عن مباهج الدنيا؟ كيف يكون الكفر إذاً... ص٢٦

<u>الفصل الربع :</u> النتائج

أولاً: مسرحية جثة على الرصيف

١- أحالت عبثية الوجود الإنساني وقهر السلطة وضغطها بعناوينها كافة، الإنسان منهزماً خائفاً مقهوراً متألماً جسدياً ونفسياً، وإنسان (ونوس) وفق هذه الجدلية يقاس بحجم ما يرى منه (الوجود المحتجب). والمسرحية تصور هموم الإنسان ووجوده المادي والكينوني والماهوي والآلامه جسدياً ونفسياً.

٢- كان الفقر والعوز والتشرد والفاقة، وقهر السلطة، سبباً لحمل شخصيات (ونوس) آلامها وهمومها وفقدان وجودها وهويتها، ليفرز التباين الطبقي والاجتماعي والمسافة بين الشعب والسلطة.

٣- حملت شخصية (المتسول) أنواع من الألم الجسدي والنفسي، حيث الحاجة والجوع والعوز، والقهر والانهزام الداخلي وضآلة الحجم والوجود والهوية، مما أحالها إلى الحلم بلذة وهمية خيالية لا تنالها، لعدم إمكان تحقيقها فعلاً، لفقدانها الوجود والماهية. لذلك هي تنشد لذة الحياة المفقودة.

٤- دفعت تداعيات الألم بشخصية (المتسول) نشدان لذة سلبية، هي لذة الخلاص الوجودي المتمثل بالموت، نتيجة تلك التأثيرات السلبية على المنظومة النفسية والاجتماعية.

٥- حملت شخصية (المتسول)الألم كحالة انفعالية شعورية، نتيجة الاتصال الجسد بالقوى الخارجية، وتداخلها مع المنظومة النفسية الداخلية، وألمها جسدي نفسي، أحدث شرخاً في المنظومة النفسية والجسدية لكيفية وقوع الألم وكميته ودرجته وشدته، فضلاً عن نوع إمكانياتها النسبية. ولذتها وهمية خيالية، تنحل الفاعلية كينبوع للألم.

ثانياً: مسرحية مأساة الحلاج

١- تأسست جدلية اللذة والألم في مسرحية مأساة الحلاج، في إقدام (الحلاج) بمسؤولية الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي نتيجة التعسف الاجتماعي والواقع السلبي، فرفض (الحلاج) لهذا الواقع والتمرد عليه، بوصفه جوهر مأساة الوجود الإنساني وقهره وخوفه وانهزامه واغترابه، هذه المهمة وجدت لها مصدات من قبل السلطة، لأن الإصلاح يعني تهديد لوجود السلطة وبقاءها واستمرارها.

٢- الواقع السلبي والتعسف الاجتماعي والانحلال الأخلاقي، هو سبب الآلام (الحلاج) ووقوفه ضد هذا الواقع، وصد السلطة له ومعارضتها إياه، هو عقاباً فكرياً لموقفه الفكري الصوفي الديني، فكلمة (الحلاج) في تنوير العامة وتهديد السلطة واتهامه بالكفر والزندقة، هي الآلام وقسوة ومصادرة ونفي واغتراب فكري، سببت له ألماً فكرياً وقهراً مادياً ومعنوياً.

٣- حمل (الحلاج) لذة روحية، لامتلاكه حضوراً وتقرباً من الله والتوحد مع الذات الإلهية، بعلمه وزهده ووجده وورعه وشطحاته الصوفية.

٤- حمل (الحلاج) ثنائية اللذة والألم، اللذة الروحية الصافية والإيمان المطلق. والألم المتمثل بالفقر والشر والتعسف والكذب والطغيان والظلم والصمت والضياع والنسيان والابتعاد عن معرفة الله عند عامة الناس، فضلاً عن ضغط السلطة. وهنا يكمن السجن الروحي والمادي والاغتراب العقلي والمكاني، بغياب الحق والعدالة والمعرفة.

٥- قتل (الحلاج) والنفي الفكري والمادي ومصادرة إرادة العامة وصمت أصحاب الرأي، ومساءلة الإنسان عن معتقده ومعرفة كيفية إيمانه، هي من تداعيات الآلام والقهر، يقابل كل تلك الآلام والقهر لذة ما تركه (الحلاج) من كلمات والمتمثلة بالوجد والصبر والتوحد مع الذات الإلهية، التي من الممكن بها مجابهة كل أنواع الألم والقهر والتعسف الاجتماعي والأخلاقي.

ثالثاً: مسرحية الجنة تفتح أبوابها متأخرة

١- تأسست جدلية ثنائية اللذة والألم في مسرحية الجنة تفتح أبوابها متأخرة، لما أفرزته الحرب من دمار وويلات ونتائج سلبية على المجتمع والأسرة والذات الإنسانية والوجود، حيث الألم الساكن في كل مفاصل الحياة، ألم الجوع والفقر والمرض والجهل والضياع والتشرد، وضياع الأحلام والعلم وعزة النفس، حيث التحلل الاجتماعي والأخلاقي، فالحرب تنتج آلاماً نفسية وجسدية، بعثرت كيان الفرد ووجوده وماهيته وحياته.

٢- حملت شخصية (الأسير) أنواعاً من الآلام الجسدية والنفسية، لما خلّفه الأسر وطول مدته وتداعياته في المنظومة النفسية والجسدية، بعدم التعرف وفقدان الهوية والنكران ، فكل شيء قد تغير. انه الغياب المادي عن الذات والأسرة والبيت والوطن.

٣- حملت شخصية (الأسير) ثنائية اللذة والألم، ألم الأسر والفراق والحسرة وتغير الملامح ، ولذة النشوة والشوق والعودة والحلم والشعور بقوة الحب، سواء كان في الأسر وما بعده، ألم التوهم ولذة الخيال المتصورة لحياة قبل الأسر.

٤- حملت شخصية (المرأة) أنواعاً من الآلام، ألم الفراق وانتظار الزوج الغائب، ألم الوحدة والفراق والاغتراب، ألم العوز وغياب السند والمعين، ألم الخوف على الشرف والعفة والفضيلة والأخلاق، ألم غياب الإيمان والسعادة، ألم التحمل والحيرة والتردد والدهشة من عدم معرفة زوجها العائد ونكرانها له، انه الألم النفسي والجسدي.

٥- يجعل (فلاح) هذه الآلام، تمثل الآلام الأنا الجمعي، فالحرب لا تستثني أحد، وتشمل نتائجها الجميع، وعلى مستوى المنظومة النفسية والجسدية. كما يضمّن (فلاح) في بنية مسرحيته بعض اللذات، لذات التذكر لحياة ما قبل الأسر، أنه الحب في زمن الحرب، كما الحب في زمن الكوليرا.

<u>الاستنتاجات</u>

١- تسيد الألم وتمظهره وتسيده في النص المسرحي العربي، أكثر من اللذة، ذلك لنوع الحياة والواقع السلبي، وتسيد السلطة وتكبيلها إرادة الشعوب.

٢- تمظهر السلطة كواقع مسيطر ومسبب للألم، وبأشكال وعناوين مختلفة، تكون أداة لها.

٣- تمظهر عدة أنواع من الآلام في بنية الشخصية الواحدة، وعدم حملها ثنائية اللذة والألم في آن واحد، أي إن اللذة لا تتولد من الألم. ولا الألم يتولد من اللذة في بنية النص المسرحي العربي. أي بمعني عدم امتزاج اللذة والألم واتحادهما.

٤- حضور (الأنا الجمعي) في ثنائية اللذة والألم، بوصف الموضوع المعالج في بنية النص المسرحي، هو حالة عامة، وعلى المستويات كافة، وفي المنظومة النفسية والجسدية.

٥- تمظهر أنواع ثنائية اللذة والألم في النص المسرحي العربي، مع اختلاف الكمية والكيفية والمناخ والظرف، ومن حيث الطول والمدة، مع استنزاف الطاقة مع حالة الألم، وبقائها في حالة اللذة.

٦- تنوع انحلال ثنائية اللذة والألم، انحلت إلى المذهب العقلي (الحلاج)، والى مذهب الفاعلية (المتسول) و(الأسير) و(المرأة).

٧- اختلفت وظيفة ثنائية اللذة والألم، ما بين السلب والإيجاب، فهي سلبية عند (المتسول) و(الأسير) و(المرأة) وايجابية عند (الحلاج).

٨- اتصال ثنائية اللذة والألم عند كل الشخصيات، الجسد بالعالم الخارجي وقواه، لتكون ظاهرة نفسية شعورية. فاللذة عند الشخصيات إدراك الملائم كمال وخير، تحددها نوع الشخصية، سلبية كانت أم ايجابية، وتحددها الحاجات

والميول والرغبات بغية الإشباع. والألم إدراك ونيل آفة وشر وعدم حصول المرجو، من خلال المصدات، شخصية (الحلاج). وسوء التكيف وعدم التوافق والإمكانات والقابليات التي تعيق تحقيق الأهداف، شخصية (المتسول) و(الأسير) و(المرأة). مع عدم تمظهر الحالة الحيادية الوسطى.

ثبت المصادر والمراجع:

١- أبن منظور. لسان العرب. مج١. مج١٣. ط١١. (بيروت: دار صادر، ٢٠١١).
٢- أفلاطون. كتاب الفدون أو خلود النفس. تر: مونيه.
٣- أنيس (إبراهيم) وآخرون. المعجم الوسيط. ج٢. (استانبول: دار الدعوة، ١٩٨٩).
٤- الحفني (عبد المنعم). المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة. ط٣. (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠).
٥- الحنفي (محمد علي بن علي بن محمد التهانوي). كشاف اصطلاح الفنون. مج٤. ط٢. (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦).
٦- راجح (أحمد عزت). أصول علم النفس. (بغداد: مطبعة اشبيلية، د.ت).
٧- رزوق (أسعد). موسوعة علم النفس. ط١. (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مطابع الشروق، ١٩٧٧).
٨- السامرائي (هاشم جاسم). المدخل في علم النفس. (بغداد: مطبعة الخلود، ١٩٨٨).
٩- سيلامي (نوربير). المعجم الموسوعي في علم النفس. ج١. ج٥. تر: وجيه أسعد. (دمشق: منشورات وزارة الثقافة، مكتبة الأسد، ٢٠٠١).
١٠ – شاكر (فلاح). مسرحية الجنة تفتح أبوابها متأخرة. (بغداد: نقابة الفانين العراقيين، مطبوعة على الآلة الطابعة، ١٩٩٨).
١١- الشربيني (لطفي). موسوعة شرح المصطلحات النفسية. ط١. (بيروت: دار النهضة للطباعة والنشر، ٢٠٠١).
١٢- صليبا (جميل).المعجم الفلسفي. ج١.ج٢. ط١. (قم: ذوي القربى، ١٣٨٥ه).
١٣- صليبا (جميل). علم النفس. ط٣. (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٤).
١٤- طه (فرج عبد القادر) وآخرون. معجم علم النفس والتحليل النفسي. ط١. (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت).
١٥- عباس (فيصل). الإنسان المعاصر في التحليل النفسي الفرويدي. ط١. (بيروت: دار المنهل للطباعة والنشر، ٢٠٠٤).
١٦- عباس (فيصل) ومالك العنبكي. مدخل إلى علم النفس. ط١. (بيروت: دار المنهل للطباعة والنشر، ٢٠٠١).
١٧- عبد السلام (مصطفى). عالم الشخصية. (بغداد: مطبعة منير، بلا).
١٨- عبد الصبور (صلاح). مسرحية مأساة الحلاج. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦).
١٩- العزة (سعيد حسني) وجودت عزت عبد الهادي. تعديل السلوك الإنساني. ط١. (عمان: الدار العلمية الدولية ودار الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠٠١).
٢٠- عفيفي (محمد الهادي). موسوعة الحب والجنس عبر كل الأديان. ط١. (الجيزة: هلا للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨).
٢١- لابلانش (جان) و ج. ب. بونتاليس. معجم مصطلحات التحليل النفسي. ط٢. تر: مصطفى حجازي. (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٧).
٢٢- لالاند (أندريه). موسوعة لالاند الفلسفية. مج١. مج٢. ط١. تعريب خليل أحمد خليل.(بيروت: منشورات عويدات،١٩٩٦).
٢٣- موسى (رشاد علي عبد العزيز) وآخرون. علم النفس الديني. (القاهرة: مؤسسة مختار لنشر وتوزيع الكتاب، ١٩٩٦).
٢٤- ونوس (سعد الله). الأعمال الكاملة. مج١. ط١. مسرحية جثة على الرصيف. (بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٤).